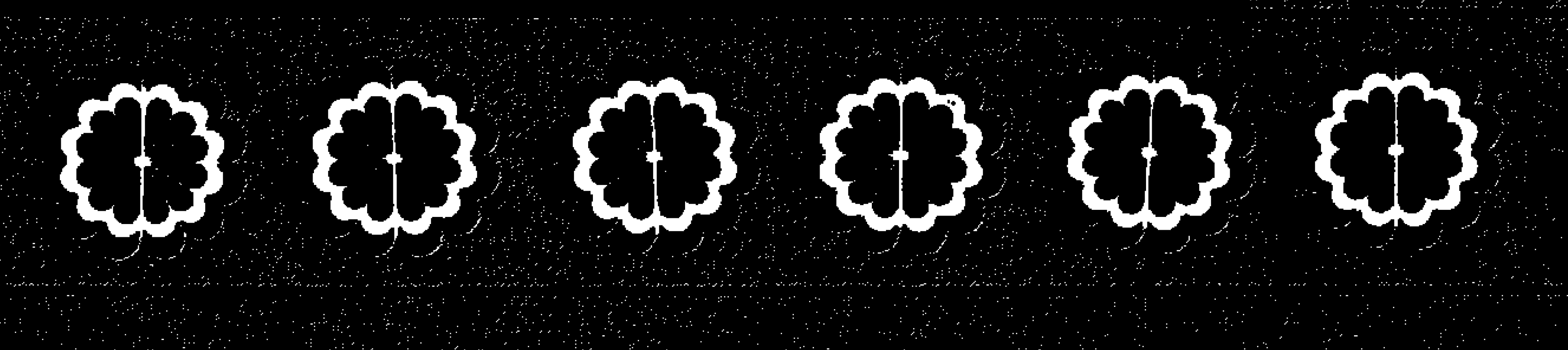

أبناء الرسول في كربلاء



أبنـــاء الرســول فى كربلاء

خالد محمد خالد





الطبعة الخامسة
شعبان ١٤٠٦هـ ــ ابريل ١٩٨٦م

دار ثابت للنشر والتوزيع

٩٢ أ شارع محمد فريد ــ القاهرة ص. ب ٦ باب اللوق تليفون : ٧٦٩٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من الصعب أن نجد فى تاريخ البشرية كله ، يوماً كذلك اليوم الفريد والمجيد .. وأبطالاً ، كأولئك الأبطال الشاهقين والباهرين .. !! إذ لم يكن الأمر فى ذلك اليوم ، أمر شهداء برزوا لمناياهم فى استبسال وغبطة ..

ولا أمر جيش ، خرج لجيش مثله ، فأبلى وأحسن البلاء ..

إنما الأمر الذى شغل الدنيا فى يوم كربلاء ، هو أنه اليوم الذى تجلت فيه قداسة الحق . وشرف التضحية على نحو متميز وفريد .. !!

وصحيح أن تاريخ الإسلام مترع بالمشاهد الزاخرة بقداسة الحق وشرف التضحية ، أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيما تلا عصره الرائد العظيم من عهود وعصور .. بيد أن يوم كربلاء ، تبقى له سمته المجيدة ، وميزته الفريدة .

فالقضية الجليلة التى دار من أجلها الصراع .. والقلة الصامدة الماجدة ، التى وهبت حياتها لتلك القضية ..

والطريقة التى دار بها القتال بين أربعة آلاف فارس من جيش ابن زياد ـــ ، واثنين وسبعين لا غير .. هم أنصار « الإمام الحسين » ..

والأحداث المروعة ، التى سبقت ذلك اليوم ...

والحصاد الأليم ، والعظيم الذى خلفه ، بعد أن مالت شمسه للغروب ..

كل ذلك يجعل من يوم كربلاء يوماً فريداً فى تاريخ الآلام والبطولات .. فى تاريخ التضحية والمجد .. فى تاريخ المأساة والعظمة .. وفى تاريخ الحق الذى شهد فى ذلك اليوم ورغم هزيمة ابطاله ـــ سيادة وانتصاراً قرّت بها عيناه .. !!

إن أعظم ماصنع «الحسين» وأهله وصحبه فى ذلك اليوم هو أنهم جعلوا الحق قيمة ذاته ، ومثوبة نفسه ؛ فلم يعد النصر «مزية» له .. ولم تعد الهزيمة «إزراءً» به .. !!!

لقد وقف اثنان وسبعون بطلا ، وراء قائدهم العظيم « أبىعبدالله الحسين » : ليس لهم فى إحراز النصر على عدوهم أدنى أمل ..

وليس أمامهم سوى القتل بأسلحة خصم فاجر ، متوحش ، مسعور ..

وأمامهم فرص النجاة ، إذا هم أرادوها .. لكنهم رفضوا النجاة ؛ مادامت ستكون غمطاً لقداسة الحق ، وثلما لشرف التضحية .. ! !

وهكذا راحوا يقاتلون حول قائدهم الممجد ، معانقين المنايا ، واحداً

بعد واحد .. وهم يصيحون ، بل يغنون :

الله ، والجنة .. الله ، والجنة .. !!

من أجل ذلك ، يرفض هذا الكتاب الوقوف عند اعتبار « كربلاء » مأساة وفاجعة ، ومناسبة للبكاء والعويل ..

ويمد بصره نحو مضمونها الصحيح ، وجوهرها النضير ، فيراها مهرجاناً للحق وعيداً للتضحية ، ليس لهما نظير .. !!

إنه يوم لم يعرف المسلمون بعد ، حقه عليهم ، ولا واجبهم تلقاءه .

وإن الأقدار لم تدع رؤوس أبناء الرسول تحمل على أسنة رماح قاتليهم ؛ إلا لتكون « مشاعل » على طريق الأبد .. للمسلمين خاصة ، وللبشرية الراشدة كافة ، يتعلمون فى ضوئها الباهر : أن الحق وحده هو المقدس .. وأن التضحية وحدها هى الشرف .. وأن الولاء المطلق للحق ، والتضحية العادلة فى سبيله ، هما وحدهما اللذان يجعلان للإنسان وللحياة قيمة ومعنى .. !!!

فهل يأذن حفيد الرسول ، وأبو الأبطال ، أن أقدم عنه وعن رفاقه الأبرار هذه الصفحات .. !!

إنى لأجاوز قدرى ، إذا زعمت أو توهمت أننى قادر على إيفاء تضحياتهم وعظمتهم حقها ..

لقد وجدت ـ لا غيرـ عبير تلك التضحيات وتلك العظمة ؛ فرحت أنادى الناس كى يستمتعوا معى بهذا العبير .. !!!

وليشهدوا ـ كما لم يشهدوا من قبل ـ شرف التضحية ، وعزمها القدير .. !!

و يا أبا عبد الله ...

سلام على البيت الذى أنجبك .. وعلى الدين الذى ر باك ..

وسلام على رفاقك الأبطال الممجدين ، والشهداء الظافر ين .

خالد محمد خالد

الفصل الأول

للتضحية خلقوا

كانت أحبَّ أهلها إلى أبيها ، وأقربهم من قلبه الودود .. وكان صلى الله عليه وسلم يشَمّ فيها عبير ذكريات عزيزة وغالية .

ذكريات السنوات الجليلة التى قضاها فى صحبة أمها « خديجة » ..

كما كان يتهلّل غبطة ورضاً ، وهو يرى فيها أمَّ ذريته المباركة وسِبْطه العظيم ..

إنها « فاطمة » ...

بورِكَ الاسم ، و بورِكَتْ صاحبتُه !!

وقد ذهبت يوماً الى أبيها الرسول تسأله أن يُدبِّر لها خادماً يُعينها على عمل البيت الذى أمْجَل يديها ، وأضْنى عافيتها ، ومسَّها منه اللُّغوب .

وكان زوجها العظيم « على بن أبى طالب » هو الذى نصحها بهذا حين علِم بمقدم بعض السَّبْيِ إلى المدينة ، وحين رآها تكاد تسقط إعياءً تحت وطأة العمل الدائب فى خدمة البيت والأولاد .

وفى دار النبوة ــ وما كانت دار النبوة تلك سوى حجرة متواضعة فى ناحية من المسجد ــ استقبلها الأب والرسول !

ــ مرحباً ، يافاطمة ..

وجلست « فاطمة » تتحدث مع أبيها ، و بين الحين والحين تحاول

الاستنجاد بشجاعتها كي تلقى بين يديه الرغبة التى حفَزْتها إلى المجئ .

لكنَّ الحياء يغلب فيها الشجاعة ؛ فتكظِم الرغبة ولا تبوح ..

ثم تستمر فى حديث آخر أشبهُ ما يكون بالنجوى مع أكرم والد ، وأكرم رسول . !!

وأخيراً تستأذن فى العودة إلى دارها ، فيأذن لها أبوها الرسول ، و يودعها بنظرات مشفقة ، وحانية ..

و يسألها الزوج وقد عادت إليه :

ــ ماذا قال لك رسول الله .. ؟

وتجيبه « فاطمة » :

ــ لقد استحييتُ أن أسأله !!

لكن « علياً » يعلم ما تنوءُ به من أعباء ، فيصحبها من فوره إلى الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، حيث يُنهى إليه رغبتها وحاجتها .

و يرنو بصر « النبى » إلى بعيد .. و يلتمع وجهه المضئ تحت غُلالة شفَّافة من الشجن ، والأسى ، والحنان ..

إنه ليعرف ــ مثلما يعرفان ــ ما تعانيه ابنته الحبيبة من مشقَّة وشظَف ، وهى التى وُلدت فى أحضان نعيمٍ جزْل كانت تزخر به دار أمها « خديجة » ذات المجد الوارف والثراء المُفيض .. !!!

لكنها اليوم ابنة « رسول » جاء الحياة ليعطى ، لا ليأخذ ..

رسول قرر أن يكون حظه وحظ أهله من الدنيا كزاد الراكب ، بل دون زاد الراكب بكثير .. !!

وإن « فاطمة الزهراء » رضى الله عنها لتعلم هذا المنهج وتلتزمه .

ولقد رضيتْ ــ قريرة العين ــ أن يكون كل جهازها الذى زُفَّت به

ليلة عرسها ، أعواداً من جريد ، صنع منها سرير واطىء .. ووسادةً حشوها ليف .. وسِقاءين للماء .. ورحاءين للطحن .. وقارورتَىْ طيب .. ومنخلا .. ومِنْشَفَة .. وقدحاً .. !

وهى إذ تجئ اليوم إلى أبيها على استحياء ، فى صحبة زوجها الفقير من عرَض الدنيا ورغَد العيش ، فإنها لاتطلب ماينأى بها من منهج الرسول فى الزهد وفى الورع .. إنها لاتريد أكثر من خادم يحمل عنها بعض العبْء الذى يُثقِل كاهلها .. !

ولكن ، لا ... فمادامت الأقدار قد أسعدتها وشرَّفتها بأن تكون « بنت رسول الله » فإنها فى نفس الوقت ولنفس السبب ، تدعوها لأن تتحمل من التضحية أقصى مايستطيع الناس .

ويحتمل معها ذلك القدَر وأكثر ، زوجها و بنوها .. !!

وإن مشقَّة البيت ، وشظَف العيش لأهْوَنُ تلك التضحيات التى سيُقدَّر لآل هذا البيت المجيد أن يحملوها . !!

من أجل هذا ، لم يجد الرسول فى وُسْعه أن يجيب « فاطمة وعلياً » إلى رغبتهما المتواضعة والمشروعة .

ومن ثمَّ غطَّى وجه ابنته الحبيبة بنظراته الآسية والحانية ، وقال يخاطبها :

« لا ، يافاطمة .. لا أعطيك ، وأدَع فقراء المسلمين .. !! » .

ثم اقترب منهما ، وطوّقهما بذراعيه ، وقال لهما ، وعلى فمه ابتسامة كضوء الفجر :

« ألا أدلكما على خيرٍ من خادم .. ؟
إذا أويْتُما إلى مضْجَعكُما ؛ فسبِّحا الله ثلاثاً وثلاثين .. واحمداه ثلاثاً وثلاثين .. وكبِّراه أربعاً وثلاثين .. فذلك خير لكما من خادم » .. !!

إذا نحن جاوزنا شكل هذه الواقعة إلى جوهرها ، أدركنا المَغزى العظيم لها ، وأدركنا كذلك ، الدوْر المجيد والوحيد الذى كان على أهل بيت النبى أن يقوموا به غير منتظرين عليه أجراً ، ولا مُتعلّلين براحة .. !!!

وإذا كانت هذه الواقعة ترينا كيف كان الرسول يُزكّى هذا المبدأ فى أفئدة آل بيته ، فإنها لم تكن الواقعة الوحيدة فى هذا المجال .. بل هى واحدة من وقائع كُثُرٍ كان الرسول عليه الصلاة والسلام يصوغ منها أسلوبه فى إعداد أهل بيته لِدورهم العظيم ، هذا الدور الذى ستكون التضحية لُحمَته وسداه ..

ففى يوم آخر .. وكان يوم فتح مكة . ذهب « على » إلى رسول الله يسأله أن يمنحه حِجابة البيت الحرام .

وكانت الحجابة وظيفةً تتوارثها من قديم إحدى عائلات قريش .

ولم يكن ابن عم الرسول حين تمنّاها ، يطمح إلى مغنم أو عرض من أعراض الدنيا الزائلة .

إنما كان يرجو أن يذهب بشرفِ حَمل مفاتيح بيت الله الحرام .

هنالك تقدم من الرسول الذى كان جالساً وسط أصحابه : تقدم ومفاتيحُ المسجد والكعبة فى يمينه وقال :

« يارسول الله !! اجعل لنا الحِجابة مع السقاية ، صلى الله عليك » ..

وابتسم الرسول ابتسامته العذبة المعهودة فى مثل هذه المواقف . و بسط يمينه المباركة نحو ابن عمه ، آخذاً منه المفاتيح ، ثم نادى ، و بصرُه يجول بين الناس :

« أين عثمانُ بن طلحَة » .. ؟؟

وكان « عثمان بن طلحة » هو القائم يومها بوظيفة الحجابة هذه ..

ونهض «ابن طلحة» قائماً ، يلبى نداء رسول الله وألقى الرسول بالمفاتيح إليه ، وقال :

« هاكَ مفتاحكْ ياعثمان .. اليوم ، يوم برٍّ ووفاء » ..

ثم التفت إلى ابن عمه « على » وقال :

« إنما أعطيكُم ما تُرْزَأون ، لا ما ترزأون » .. ! !

ياله من درس .. و يالها من نُبوءة .. !!

أجل .. هذا دور آل محمد فى الحياة .. التضحية ، بكل ماتتطلبه من شَظف ، وتبتُّل ، واستِغناء ..

لاشئ دون التضحية ، ولاشئ سواها ..

أما الدنيا بكل زينتها وزخرفها وإغرائها ؛ فهى أهونُ على الله من أن يجعلها لهم مثوبة وأجراً .. ! !

إن عليهم فى هذه الحياة أن يقوموا بدور واحد . عليهم أن يقْضوا أعمارهم كلها فوق « مِنصَّة الأستاذية » ؛ ليعلّموا الناس فناً واحداً .. هو فن التضحية والفداء . أروع وأصدق ماتكون التضحية ، و يكون الفِداء .. !!!

* * *

على هذا النسق الرفيع الباهر، ربى الرسول الكريم « علياً وفاطمة » الأبوْين اللذين سيجيء من أصلابهما ، الحسن ، والحسين ، وزينب ، وبقية الأبناء والحفَدة المباركين . الذين سنطالع على صفحات هذا الكتاب جلالَ مابذلوا من تضحية .. وروعة ماصنعوا من بطولة .. !!

لقد ربّاهما كما رأينا على التحمُّل والتضحية .. وصحيح أنه ربّى جميع أصحابه على ذلك .. بيْدَ أنه كان يطالب ذو يه وأهل بيته بأن يبلغوا فى هذا المجال أرفع مستويات التفوّق والنبوغ .

فالقدوة التى يجب على « فاطمة » أن تعطيها الآخرين بوصفها بنت رسول الله ..

والقدوة التى يجب على « علىّ » أن يمنحها الآخرين بوصفه ابن عم الرسول ، وتلميذه الأول ، وزوج ابنته ، ووالد أحفاده ..

هذه القدوة المنتظرة منهما ، تختلف فى نوعها وفى درجتها .. وتتفوّق فى نوعها ، وفى درجتها ..

ولئن كانت القدوة فى عُرف البشر « تجسيداً » للمثُل العليا التى أبدعها الانسان واكتشفها ؛ فإنها كما علَّم الرسول آل بيته وأصحابه « تجسيدٌ » للربَّانيَّة التى يريدها الله . !!

وها هو ذا القرآن العظيم يهتف فيهم :

(كونوا ربَّانيِّين بما كنتُم تُعلِّمون الكتاب . وبما كنتم تدرسون) .

فالرَّبانية وحدها ، هى التى تضفى على العظمة الإنسانية رُواءَ الصدق ، والإخلاص ، والنُّسُك ..

وهى التى تجعل من التضحيات رُشْداً ورضواناً ..

ولقد كانت القدوة التى تركها « علىّ وفاطمة » والتى سيتركها « بنوهما » من بعدهما رائعة الاتساق مع هذه الغاية الفريدة ، وذلك المستوى البعيد .

لقد كرَّسوا حياتهم للحق ، أعظم مايكون التكريس .. وضَحّوا فى سبيله ، أصدقَ ماتكون التضحية ..

وإذا كان أكثر مايجبن الناس عن التضحية ، هو حب المال وحب الحياة .. فإن آل بيت الرسول .. هؤلاء البررة البواسل الأطهار . قد عرفوا كيف يستهينون بالمال ، و يستهينون بالحياة .. !!

لقد رأينا ، كيف كان « عليّ وفاطمة وأبناؤهما » يعيشون فى خَصاصة وشَظَف ..

ألا فلْنعلمَ أنّ هذه الخصاصة لم تكن عليهم ضربة لازِب .. بل كانت من صُنع أيديهم واختيارهم ..

فنصيب « عليٍّ » من الفَىء ومن الغنائم كان عظيماً .. لكنه ما كان يُبقى عليه ، ولا يدَّخِر منه .

إنما كان يأخذ منه مثل حَشو الطائر .. ثم يهَبُ بقيَّته فى سماحٍ وغبطة مسكيناً ، و يتيماً ، وأسيراً .. !!

ولطالما كان يعمد إلى الطعام المقِلّ الذى يحتاجه لغذائهما طفلاه « الحسن والحسين » ، فيتصدق به على شيخ هرِمٍ ، أو أرملة ، أو يتيم ..

وستكون هذه طريقة أولاده وشيمَتهم حين يكبرون ..

فبعد قليل ، سنرى « الحسن » وقد كثر راتبه وعطاؤه ، أيام « معاوية » يُقاسم الله أمواله .. !! وكذلك سنرى « الحسين » .. سنراهما ينفقان عطاءهما فى سبيل الخير، فى سخاوة نفس نادرة المثال .

فإذا دُعوا إلى التضحية بالحياة بعد التضحية بالمال ، جادوا بأنفسهم ، و باعوا صفقةً رابحة وغاليةً ومتواضعة لله رب العالمين .. !!

إنهم للتضحية خُلِقوا .. وللفِداء عاشوا ..

ولقد يخدعنا الفهم الزائغ لموقفين وقفهما « عليٌّ وفاطمة » فنرى فيهما جُنوحاً عن المبدأ العظيم الذى قامت عليه حياتهما .

هذان الموقفان هما :

ـــ موقف « السيدة فاطمة » من حقها فى ميراث النبى .

ـــ وموقف « الإمام على » من بيعة الصدّيق أبى بكر .

* * *

إن النظرة السريعة المتعجّلة لهذين الموقفين ، توقع أصحابها فى وهم كبير ، فيحسبونها عَرضاً من أعراض التطلّع إلى الدنيا والحفاوة بها .

فأما عن الموقف الأول ، فلم يكن لدى النبى صلى الله عليه وسلم مايورّث .

لقد كان يمضى الشهر والشهران والثلاثة ، مايوقّد فى بيته نار تطهو طعاماً .. !!

ولقد لقى ربه ، ودِرْعُه مرهونة فى حفنات شعير .. !!

كل مافى الأمر ، أن المسلمين فى بعض غزواتهم أصابوا أرضاً ـ أمر رسول الله أن تبقى فى أيدى أصحابها . على أن ينال كل ذى حق فيها نصيبه من ريْعها .

وأفاء الله على رسوله من تلك الأرض ــ فى خَيْبر ، وفَدَك ــ قطعة صغيرة . كان يُحمَل ريْعها إلى الرسول فيستعين به على معيشة بيته وأهله ، وأبناء السبيل .

ولما انتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى ، حوّل خليفتُه الصدّيق ذلك الريْع إلى بيت مال المسلمين .

وطالبت به السيدة فاطمة بوصفها وارثة أبيها ، وغاضبت الخليفة من أجل صنيعة ذاك ..

بيد أنها لم تكد تعلم من أبى بكر ، ومن غير أبى بكر من الأصحاب أن الرسول كان قد أعلن فى حياته أن الأنبياء لا يورّثون ، حتى فاءت إلى حكم الشرع وأذعنت لقرار الرسول ، وتقبّلت فى رضاً وتسليم حرمانها من ذلك الرّيْع الذى كانت فى أشد الحاجة إليه .

وهكذا أضافت إلى تضحياتها تضحية جديدة ، وفاءً منها وولاءً للحق الذى قامت عليه حياتها .. !!!

وأما موقف « الإمام علىّ » من بيعة « الصدّيق أبى بكر» رضى الله عنهما ، فما كان امتناعه عن البيعة أول أمرها تحدّيا منه للمبادئ التى قامت عليها حياته الورِعة ، ولا نكوصاً عن التضحية من أجلها .

بل كان فى التحليل النهائىّ له ، صورةً صادقة لاستقامة النهج فى ضمير « الإمام » وسلوكه . !!

لقد كان على اقتناع وطيد بأن خير الإسلام فى أن يظلّ لواؤه بيد واحد من بيت النبوة ، لاسيّما فى الفترة التالية لوفاة الرسول ، حيث يُخشى أن تتحرك النزعات القَبَليَّة فى أحشاء المجتمع من جديد ، متخذةً من منصب الخلافة مجالَ تنافسها ــ الأمر الذى حدث فعلا يوم السَّقيفة ، إذ رأى بعض زعماء الأنصار أنهم أولى بالخلافة .. ورأى المهاجرون أنهم أحق بها وأجدر .. وكاد الخلاف يتفاقَم لولا أن بسط الله يده فوق عباده ، وتحرك الضمير الدينى الرشيد الذى غرسه الرسول فى أفئدة أصحابه ؛ فذاب الخلاف فَوْرَ نشوئه فى حرارة الإيمان وصدق اليقين .. !!

ولم يكن « علىّ » فى اقتناعه بأولوية بيت النبوّة فى الخلافة يبتغى لآل البيت امتيازاً خاصاً .

بل كان يرى ذلك امتداداً لواجبهم نحو الدين الذى أكرمهم الله به .

من أجل ذلك ، نراه يجعل هذه الأولوية مشروطة بأن يكون فى آل البيت من يُؤهله صلاحه وورعُه واقتدارُه لحمل تبعات المنصب الجليل .

ولقد صور اقتناعه هذا فى وضوح كامل من خِلال حواره مع الرّاشدَيْن « أبى بكر وعمر» فقال :

« إنكم تدفعون آل محمد عن مُقامه ومُقامهم فى الناس ، وتُنكرون عليهم حقهم ..
أما والله ، لنحن أحق بالأمر؛ مادام فينا القارئ لكتاب الله .. الفقيه فى دين الله ..

العالمُ بسنن رسول الله .. المضطلعُ بأمر الرَّعيّة .. القاسِمُ بينهم بالسَّويّة » ..

وفى كلماته للصِّديق حين وقف فيما بعد يُبايعه .

« يا أبا بكر ..
إنه لم يمنعنا من أن نُبايعك إنكارٌ لفضلك ، ولا نفاسَةٌ عليك لخير ساقَه الله إليك .. إنما كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقاً أخذتموه . » (١) .

على أنه ــ كرَّم الله وجهه ــ سرعان ما انضمَّ لإجماع الصحابة ، و بايع « الصدِّيق » بيعةَ صِدق و يقين .

وسرعان ما أثبت « الصدِّيق » ومن بعده « الفاروق » أنهما خير خلَف ، لأكرَم سلَف ..

ووقف « علىٌّ » مع كلا الخليفتين يبثُّهما الرأى السديد ، والنُّصح الأمين مما جعل أمير المؤمنين « عمر » يُشيد بسداد رأيه فيقول !

« لولا علىٌّ ، لهلَكَ عمر » .. !!

هو إذن لم يكن ينشد الخلافة لدنيا يصيبها ، ولو أرادها لذلك لطالتْها فى يُسر يداه .. فلطالما حثَّه أبو سفيان يومئذ ، بل حرَّضه إثر مبايعة الناس أبا بكر على أن يتشبث بحقه فى الخلافة ، قائلا له : « إن شئت لأملأنَّها عليهم خيلاً ورجلاً ، ولأسُدَّنها عليهم من أقطارها » ..

فما كان جواب الإمام العظيم إلا أن قال له :

« يا أبا حنْظَلة !! إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا ، ولا من شيَمنا .. ولقد سدَدْتُ دونها باباً ، وطويْتُ عنها كَشْحاً » .. !!

---

(١) راجع كتابنا « فى رحاب على » .

ولقد جاءته الخلافة فيما بعد ، فماذا كانت له .. وماذا كان لها .. ؟؟

أما هي ، فكانت له عِبئاً فادحاً ، ورُزءاً رهيباً ..

وأما هو؛ فكان لها المؤمن الذى لا يصرفه عن مسئوليات إيمانه شيء، والفدائيّ الذى لا تصرفه عنْ حب التضحية رغبة .. ولا تُجفِله رهبة .. !!

لقد كان قادراً — لو أراد — أن يطوى بيمينه مائة حاكم من أمثال معاو ية .. وأن يطوى بيمينه مائة شام ، لا شاماً واحدة !!

أجل . بقليل من الدهاء ، و بقليل من المسايرة ، كان قادراً على دَحْض التمرد كله .

لكنَّ صرامته فى احترام مبادئه وتطبيقها جعلته يؤثِرُ المركب الصعب دوماً .

كان مؤمناً بأن الحق يجب أن يمضى فى طر يقه دون مُراوغة ، أو مُسايرة ، أو دهاء .

وحين أشاروا عليه أن يستبقى معاو ية بعض الوقت والياً على الشام ر يثما تقرُ الأمور وتهدأ الفتنة ، صاح فى مشير يه قائلاً :

« أتأمرونني أن أطلب النصرَ بالجوْر .. ؟ لا والله ، لن يرانى الله مُتَّخِذَ المُضلِّين عَضُدا » .. !!

هذا ، هو الرجل الذى ربَّى « الحسَن ، والحسين » اللذيْن خاضا معه ، وخاضا من بعده معارك الحق ، فى سبيل أن يبقى الدين ديناً ..

هذا هو الأب الذى أنجب أبطالَ كَر بلاء ، الذين سنرى الآن من بُطولتهم عجباً ..

وهذا هو بيت آل النبى .. بين القرابين والشهداء !!

لقد نزل الوحى يوماً بهذه الآية الكريمة :

(إنما يريدُ الله لِيُذهب عنكُم الرجسَ أهل البيت ، ويُطهِّركم تَطهيراً) ..

ومن فوره ، دعا الرسول إليه « علياً ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين » حيث دثرهم بردائه ، وضمَّهم بحنانه ، وراح يقول فى حبور عظيم : « هؤلاء أهل بيتى » ..

أفكانت الدنيا بكل إغرائها و بَذْخِها وغرورها ، هى الرِّجس الذى أذهبه الله عن آل هذا البيت الكريم ، فحالَ بينهم و بينها ببحارٍ من دمائهم الزكيَّة ، وجبال من تضحياتهم الشاهقة الفتِيَّة ... ؟؟ !

الفصل الثانى

النبوة لا الملك

.. والآن نقترب من جوهر القضية التى نذر « الإمام على » لها حياته ، حتى قضى فى سبيلها شهيداً .

والتى وهبها الحياة كذلك ، أبناؤه من بعده ، حتى قضَوْا فى سبيلها شُهداء . لاسيما ذلك البطل الممجّد الشهيد « أبوعبدالله الحسين بن على » ..

لقد كشف تمرد معاوية ، ورفضه مبايعة « الإمام على » عن جوهر النضال الذى تحتّم على الإمام أن ينهض بأعبائه .

وكان السؤال الذى يفرض نفسه يومئذ على المجتمع الإسلامى كله ، هو ذا :

ـــ لمن يجب أن تكون الغلَبَة و يكون البقاء .. ؟

للنبوة بكل هَدْيها ، وورعها ، وجلالها الذى سوّاه فى أحسن تقويم وحيُ الله ومنهج رسوله ..

أم للمُلك بكل مباذخه ومباذله وتُسلطه الذى باتت ترهص به على نطاق واسع أطماع الأمويين .. ؟؟

لقد كان أخشى ما يخشاهُ « الإمام » أن تقوم فى الإسلام ـــ دولة الطُّلقاء ـــ .. !!

والطلقاءُ ، هم أولئك الذين أسلموا يوم فتح مكة راغبين أو راهبين ..
و بعض هؤلاء ، حَسُن إسلامه وصفا يقينه ..
و بعضهم بقى تحت جوانحه إلى الجاهلية حَنين ..

وكانت الدولة المسلمة يومذاك ، و بعد أن فُتحت الدنيا لها وعليها . بحاجة ماسة إلى حاكم من ذلك الطراز الربَّانى .. بحجة إلى واحد من أولئك الرجال الذين يمثلون فضائل أيام الوحى وعصر النبوة ..

ولم يكن « الإمام على » يومئذ الرجل الأفضل والأمْثَل فحسب ، بل كان الرجل الأوحد الذى تتمثل فيه وتهيب به كل حاجات دينه وأمته .

وكان الخروج عليه يومذاك يشكل خروجاً أكيداً على عصر النبوة بكل مايمثله من هُدى وعدالة ونور.

ولقد كانت بصيرة الإمام من النفاذ والصدق بحيث أبصرَت أبعاد المصير إذا استقرَّ السلطان فى أيدى الأمو يين فلقد يهون الأمر ، لو بدأ النكوص بمعاو ية ، وانتهى به .. غير أن « الإمام » كان يرى ببصيرته الصادقة أن الانحراف إذا بدأ ، فلن يُؤذِن بانتهاء ..

وكان يرى أن الأمو يين إذا أفلحوا فى تثبيت ملكهم المنشود ، فسيتحوّل التراث الجليل الذى تركه الرسول إلى مُلك عُضوضٍ ودنيا جامحة ..

ومِن ثمّ صار دَحْض هذه المحاولة التعسة واجب المؤمنين كافَّة .

وهذه كلمات أبى سفيان التى يجترّبها نوايا أسرته وقومه ، لاتدع مجالاً للشك فى أطماعهم ومايبتغون ..

فهو يوصى أهله وذو يه قائلاً : « لقد صار الأمر إليكم فلا تدعوه يُفلِت ، وتلقَّفوه كالكُرة .. فإنما هو الملك ولا أدرى ماجنَّةٌ ولانار» .. !!

وهو يمرّ بقبر « حمزة عم الرسول » فيستعيد ذكرى الأيام الماضية و يقول « يا أبا عمارة إن الأمر الذى اجتلدنا عليه بالسيوف قد صار إلى غلمان بنى أمية » .. !!

وهو حتى من قديم ، لم يكن يرى فى الإسلام إلا مُلْكاً .. فيوم فتح مكة ، وقد صحبه العباس عمّ النبى إلى الرسول ليُسلم ، و ينجو بحياته ، نظر إلى الكتائب اللَّجبة العارمة تحمل رايات الإسلام ، فإذا به ينظر إلى « العباس » و يقول : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً » .. فيجيبه « العباس » رضى الله عنه :

« يا أبا سفيان .. إنها النبوة ، لا المُلك » ..

أجل .. هذا هو الفارق الكبير بين تفكير بنى هاشم وتفكير بنى أمية .. فبنو هاشم يرون الدين على حقيقته . نُبوّة ، وهُدى ، ونورا ..

و بنو أمية يرونه من خلال أمانيّهم وأطماعهم . مُلْكاً ، وتسلُّطاً ، وسيادة .. !!

وإن « الإمام علياً » لم يُخدع إذن عن جوهر الموقف الذى اتخذه معاو ية حين رفض بيعة الإمام ، ولم يُخدع عن عواقب هذا الموقف إذا تركه المسلمون يستشرى و يتفاقم .

وإذا كانت مقاومة هذا الجنوح الخطير واجب المؤمنين .. فمَن أوْلى المؤمنين بهذا .. ؟

إنهم آل بيت النبى .. أهل التقوى ، وأهل التضحية .. !!

وهكذا شرع موكب التضحيات فى مَسيرة عالية ، كلها قِمم ومُرتفعات .. مُستهلاً بأشرف تلكم القمم وأعلاها .. حياة الإمام الرشيد الشهيد « على بن أبى طالب » رضى الله عنه وأرضاه ..

ثم بحياة الشهيد الممجّد والعظيم « أبى عبدالله الحسين بن على » ومعه عشرات من إخوانه ، وأهل بيته وصحبه ، فى يوم يجعل الوِلْدانَ شيباً .. !!

* * *

وهكذا، لم تكن « كَربلاء » مَلْحمةً ذات فصل واحد ، بدأ وانتهى يوم العاشر من المحرم ..

بل كانت ذات فصول كثيرة . بدأت قبل كربلاء بسنوات طوال .. واستمرت بعد كربلاء دهراً طويلا .. !!!

أجَل .. لقد بدأت ملحمة كربلاء ومأساتها ، يوم تمّت خُدعة التحكيم ، وحين وقع التمرد الرهيب والفتنة فى صفوف أتباع الإمام ، ثم حين خلا الجوّ لراية الأمويين داخل الشام ، وخارج الشام .. !!

ولكأنّما كان « الإمام على » يرى ببصيرته الثاقبة كل ذلك المصير .. !!

فذات يوم أثناء مسيرة مع جيشه إلى « صِفّين » بلغ به السير هذه الرقعة من الأرض ، فتمهّل فى سيره ثم وقف يتملّى مشهد الفضاء الرهيب ، وسالَت عبراته من مآقيه ، واقترب منه أصحابه صامتين واجِمين ، لايدرون ماذا أسال من مُقْلتى الأسد الدموع .. !!

ثم سألهم و يُمناه ممتدة صوب تلك الأرض التى تعلقت بها عيناه :

ــ ما اسم هذا المكان ؟

قالوا : كربلاء .

قال : « هُنا محَطّ رحالهم ومُهْراق دمائهم » .. !!!

واستأنف سيره مع المقادير ..

تُرى مَن كان يعنى .. ومَن كان ينْعى .. ؟؟ أكان يعنى قُرّة عينه « الحسين » ومَن معه من إخوة له وأبناء .. ؟؟

أكان يعني أولئك الأبطال الذين ستشهد هذه الارض ذاتها استشهادهم الرهيب والمَهيب بعد عشر ين عاماً لا غير من هذه النبوءةَ الصادقة .. ؟

رُبما ...

ورُبما لم يَكن إلهامُه ولم تكن بصيرته يومئذ معلَّقَين بواحد بذاته من أهل بيته المباركين .

فهوعلى أية حال يدرك أن المعركة التى بدأها من أجل الحق لن تنتهى ..

و يدرك أنه لن يصبر أحد من بعده على لأوائها وضراوتها مثلما سيصبر أبناؤه الذين ورثوا البطولة كابراً عن كابر .. !

وحين يحتدم فى البصائر النقيّة وَلاؤها لحق مقدس . أولمبدأ جليل ، فإنّ هذا الاحتدام يتلقى فى لحظة إشراق روحيّ مدداً من الرؤ ية غير منظور، يكشف الغيب ويجذب إلى دائرة الاستشراف أحداث الزمن البعيد .. !!

ولعلّ شيئاً كهذا ، حدث ذلك اليوم ، فرأى الإمامُ التقىّ النّقى بلاءَ أبنائه وحفدته ، رأى بلاءهم العظيم فى سبيل القضية التى حمل لواءها ، ورأى « محَطّ رحالهم ، ومُهراق دمائهم » .. !

* * *

القضية إذن ، كانت كما قلنا ، قضية « النبوة » لا « المُلك » ..

النبوة بكل تألُّقاتها الورعَة وموازينها العادلة .. لا المُلك الذى يريد نفر من الأمويين أن يردّوا به وثنية الجاهلية فى أثواب تنكُّرية .. !!

والذين يدرسون معارك « الجمَل ، وصِفِّين ، وكَربَلاء » خارج هذه الدائرة ، لا يأمنون عَثار تفكيرهم ، وزَيْغ أحكامهم .

ولقد رأينا كثيرين ممن تحدثوا عن « كربلاء » يُحمِّلون « الحسين » مسئولية مصيره ، ومصير الذين خرجوا معه .. !!

و« الحسين » رضى الله عنه ، يتحمل فى شجاعة وغبطة مسئولية ذلك المصير، ولكن ليس بالمعنى الذى يقصده هؤلاء ..

فهم يرون أنه خرج تلبية لدعوة ثوار الكوفة إياه ، باعتبار هذه الدعوة فرصة رآها سانحةً لاسترداد الخلافة من بيت معاوية إلى بيت الإمام ..

وهم يلومونه ، أو يكادون ؛ لأنه لم يُصغ لِنُصْح الناصحين من عشيرته الأقربين ؛ كى يبقى مكانه فى البلد الحرام « مكة » نافضاً يديه من مشاكل الموقف الكالح الذى نتج عن استخلاف يزيد ..

فهل كان ذلك كذلك .. ؟؟

أبداً ..

وإن الأمر لمختلِفٌ جداً ..

فالقضية فى ضمير « الحسين » لم تكن قضيةَ فرصةٍ سنحتْ .. ولا هى قضية حق شخصىّ فى الخلافة يبتغى استرداده .. ولا هى من القضايا التى يكون للإنسان الرشيد حق التخلى عنها .. !

القضية فى ضمير التقىّ الشُّجاع ، كانت قضيةَ دين .. و يستوى عنده تخلِّيه عن هذه القضية ، وتخليه عن هذا الدين .. !

صحيح أن « الشكل الخارجى » للقضية تمثَّل يومها فى استخلاف يزيد .. لكنّ « جوهرها » الصحيح كان واضحاً أمام وعى « الحسين » ورُشْده ونور بصيرته ــ تماماً كما كان واضحاً من قبل أمام وعى أبيه الإمام ، وأمام رُشده و بصيرته .. !!

واستخلافُ يزيد على هَوانِه ، لا ينفى عن القضية موضوعيتها العميقة ، ولا يَقلل من تبعة النهوض بها ، بل هو يزيد من إلحاح هذه التبعات .

فـ « يـزيـد » هذا ، لايملك ذرة من الصلاحية التى تؤهله لأن يجلس من الأمـة المسـلـمـة حيـث كـان من قبل « أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى » .. !!

لقـد كـانـت خـلافـةُ واحـد مـن طـرازه أدهـى كـارثـة تنزل بالدولة و بالأمة .

لاسيا ، وهو يُستخلَف فى عصر لاتفصله عن عصر النبوة والوحى سوى سـنوات مـعـدودات .. وفى جـيـلٍ لايزال يحيا فيه رجال شامخون أبرار من أصحـاب رسـول الله أمـثـال « عـبـدالله بـن عـمـر ، وعبدالله بن عباس ، والحسَـن ، والحسين ، وعبدالله بن الزبَيْر ، وعبدالرحمن بن أبى بكر ، وأبى الدَّرداء ، وقيس بن سعد بن عبادة » .. !!!

ولئن كـان هـنـاك من خِيار الصحابة والمسلمين من سكَن لهذا الوضع الأليم بـعـد وقـوعـه ، فإنهم لم يـفـعلوا عن رِضاً واقتناع ، بل عن رغبة فى تجـنيب المسلمين مزيداً من الحروب والآلام والدماء ــ الأمر الذى لم يتردَّد « الحسَـن » نـفـسـه عـن النهوض به ــ من قبل ــ حين تنازل عن حقه فى الخلافة لمعاو ية ، على النحو الذى سنراه عما قر يب ..

ولـو أن مـعاو ية وفَّى بالعهد الذى أبرمه مع « الحسن » أمام المسلمين كـافَّـة : فـتـرك الأمـر مـن بعده لمشورة الناس واختيار الأمَّة ؛ لتغيَّر موقف « الحسين » ولتغير بالتالى مجرى الأحداث .

إنـنـا الآن نـسـتـطـيع أن نبصر عدالة القضية التى ناضل دونها الإمام وأبـنـاؤه ، أكثر ممـا كـان مُـتـاحـاً لمعاصريها .. فهم كانوا ينظرون إليها من خِـلال حـدْسِـهـم وتقديرهم لاحتمالات المستقبل حين يستقر الأمر لبيت أبى سفيان ، وحين تنتهى إلى أيدى أبنائه مصاير الإسلام والمسلمين .

أما نحن اليوم ، فالأمر بالنسبة لنا ليس أمر حدْس أو احتمال ..

إنَّ ما كان حَدْساً بالأمس ، قد صار حقيقة ..
وما كان احتمالاً وظناً ، أصبح واقعاً وتاريخاً ..

فهاهو ذا معاوية ، لا يكتفى باغتصابه الخلافة ، ثم لا يرغب وهو على وَشْك لقاء ربه فى التكفير عن خطئه ، تاركاً أمر المسلمين للمسلمين .. بل يُمعن فى تحويل الإسلام إلى مُلْك عضوض وإلى مزرعة أموية .. !!

فيأخذ البيعة ليزيد كولى عهدٍ له .. يأخذها بالذهب ، وبالسيف ..

ثم هاهو يزيد يتربع على عرش أبيه بعد وفاته ، فيهمل أمر المسلمين ، ويعكف على اللهو بفُهوده وقُروده حتى يلقَّب بـ« يزيد القرود » .. !!

ثم يسلط من قواده ورجاله مَن يُنزلون بالعباد والبلاد من الهول ما يخجل الشيطان نفسه من اقترافه .. !!

فابن زياد ، فى الكوفة والبصرة ، يحزّ رأس كل من تُسوِّل له نفسه أن يقول : لِمَ .. ؟

ثم يقتل أبناء الرسول وأحفاده وآل بيته فى كربلاء قتلاً تناهى فى البشاعة والرِّجْس ..

ومسلم بن عقبة ، مبعوث يزيد إلى المدينة المنورة دار الهجرة ووطن الأنصار وعاصمة الإسلام ، يصنع بها وبأهلها من الوحشية والجريمة ما يتعاظَم كل وصف ..

وحتى مكة بمسجدها الحرام ، يُرسل إليها « يزيد القرود » مَن يستبيحها ، ويستبيح مسجدها الحرام .

ثم حين يختفى بيت أبى سفيان بموت يزيد ، ويسطو على الخلافة بيت مروان ، وهو شعبة أخرى ، وامتداد آخر للأمويين .. يظهر الحجّاج لينشر الخراب والدمار والقتل فى كل مكان باسم الأمويين ، وفى سبيل دعْم ملكهم ووثنيتهم ..

هذه الأهوال كلها ، والتى نراها نحن اليوم بعد وقوعها ، كان الإمام علىّ يُحسُّها ببصيرته قبل وقوعها ..

كان بإلهامه الصادق يرى كل ذلك المصير، فقام قومته ليمنع الكارثة قبل نزولها .. !!!

وقام من بعده ابنه العظيم « الحسين » ليمنع امتداد الكارثة واستمرارها .. !!

وهكذا نرى أن معركتهم الجليلة الباسلة . لم تكن معركة حق شخصى فى الخلافة ..

ولا معركة ثأر جاهلى قديم ...

* * *

إن الذى أدركه الإمام .. قبل وقوعه ، فنهض يتحاماه ، كان يدركه معه أولئك الذين وقفوا فى صفه ، وصمدوا معه إلى النهاية فى إخلاص مَكين .

أدركه الصحابى الجليل « عمّاربن ياسر » الذى قال عنه الرسول : « اهتدوا بِهدْى عمّار» ..

والذى قال عنه أيضاً : « تَقتل عماراً الفِئة الباغية » ..

والذى أجمع الصحابة بلا استثناء، وفيهم معاو ية ذاته على فضله و ورعِه وصدق نهجه وعظمة روحه .

أدرك « عمّار» نفس المصير، وآمن بذات القضية ، فصمّم على الخروج للقتال مع « الإمام على » .. مع أنه يومئذ كان قد جاوز التسعين من عمره .

إنه لم يجد عملاً أفضل من ذلك العمل ، يختم به حياته المجيدة ، فراح يصول و يُقاتل ، مُلخِّصاً إيمانه بقداسة القضية التى رفع « الإمام » لواءها

فى هذه الكلمات المضيئة الثائرة :ـــ

« أيها الناس !!

سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يثأرون لعثمان ، ووالله ماقصدهم الأخذ بثأره ، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرأوها ، وعلموا أن الحق يحول بينهم و بين ما يتمرّغون فيه من شهواتهم ودنياهم ..

وما كان لهؤلاء سابقة فى الإسلام يستحقون بها طاعة المسلمين أو الولاية عليهم ..

ألا إنهم لَيخادعون بزعمهم أنهم يثأرون لدم عثمان ..

وما يريدون إلا أن يكونوا جبابرة وملوكاً .. !!

والذى نفسى بيده ، لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وها أنذا أقاتل بها اليوم .. !!

والذى نفسى بيده ، لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفات هَجَر ، ما وهَن يقينى بأننا على الحق وأنهم على الباطل » .. !!

إنها قضية تفوّقتْ بعدالتها و بقداستها حتى على النصر ذاته .. !

فلم يعد النصر مزيّة لها .. كما لن تكون الهزيمة إزْراءً بها . !

هكذا عاشت فى ضمائر أهلها وشهدائها .. كما عبّر وصوّر .. عمّار بن ياسر .. فى كلماته السالفة :

« والذى نفسى بيده ، لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفات هَجَر ، ما وهَنَ يقينى بأننا على الحق وأنهم على الباطل » .. !!

* * *

وإذا كان للحديث بقيّة تزيدنا إدراكاً لِقداسة القضية التى ذهب « الحسين » شهيداً لها ، كما ذهب أبوه « الإمام » من قبل شهيدها ..

وكما ذهبت معها ثُلَّةٌ مباركة طاهرة من صفوة المؤمنين والأصحاب ، فلتكن هذه البقية شهادةَ شاهدٍ من أهلها .. !!

وهذا الشاهد هو: « معاوية بن يزيد » ثالث خلفاء بنى أمية .

فقبل أن يموت ــ يزيد ــ فى العام الرابع والستين للهجرة ، خلَع الخلافة ، أو بتعبير أصحّ خلع المُلك على أكبر أبنائه ــ معاوية ــ الذى عُرف باسم « معاوية الثانى » :

وكان « معاوية » هذا ، شاباً تقياً ، ورعاً ، عابداً ..

وسبحان من يُخرج الحىَّ من الميِّت ، والهُدى من الضلال . !

وعلى الرغم من أنه تسلَّم الملك شاباً لم يجاوز الخامسة والعشرين ، فإن تقوى روحه ، كانت أقوى من إغراء شبابه ، فلم يلبث فى منصبه إلا بضعة أشهر حتى ضاق به ، ودعا المسلمين إلى مؤتمر مشهود ، ونهض يخطب الجمع الحاشد فقال :

« أيها الناس !!

إن جَدِّى معاوية ، نازع الأمر أهلَه ، ومَن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله وسابقته فى الإسلام ، وهو: على بن أبى طالب ...

ولقد ركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته ، فصار فى قبره رهين أعماله ..

ثم تقلد أبى ــ يزيد ــ الأمر من بعده ، فكان غيرَ أهل له ..

رَكِب هواه ، وأخلَفه الأمل .. وقصر به الأجل ، ثم صار فى قبره رهين ذنبه ، وأسير جُرمه . !!

وإن من أعظم الأمور علينا عِلْمنا بسوء مُنقلَبه ، وقد قتل عِترة رسول الله ، وأباحَ الحرم ، وخرَّب الكعبة .. !!

وما أنا بالمتقلّد أمرَكم ، ولا بالمتحمِّل تبعاتكم فاختاروا لأنفسكم ..

والله ، لئن كانت الدنيا خيراً فلقد نِلنا منها حظاً .. ولئن كانت شراً ؛ فكفى ذرية أبى سفيان ما أصابوا ..

ألا فليُصلِّ بالناس حسّان بن مالك ، وشاوروا فى خلافتكم ، يرحمكم الله » .. !!!

ثم غادر منبره إلى داره ، ولبث بها عاكفاً على عبادة الله ، حتى لَقيه راضياً مَرضياً ..

إن هذه الكلمات التي قالها « معاوية الثانى » ابن — يزيد — وحفيد — معاوية بن أبى سفيان — لتشكّل برهاناً باهراً على عدالة القضية التى هى فى غنى عن كل برهان ..

وهذا الشابّ الصالح الذى أثقلت ضميره الحرَّ أوزارُ آبائه . قدَّم بموقفه ذاك .. أو بالأحرى قدَّم القدَرُ به وبموقفه ، وثيقة الإدانة كاملة وصادقة لأولئك الذين وقفوا من الإمام ، ومن أبنائه ، ومن القضية التى حملوا مشعلها ، مواقف الكيد والعداء .

وإننا اليوم ، وبعد مضى مايقرب من أربعة عشر قَرناً على ذلك الصراع ، لَنجدُ حرارة الصدق ووضوح الحق فى موقف « الإمام على » من « معاوية » .. ثم فى موقف « الحسين » من يزيد ..

إننا نتصور عصر النبوة ، كما كان فى عهد منشئِه وبانيه « محمد رسول الله » صلى الله عليه وسلم .

ثم نتصوره كما كان فى عهد خليفتيه النادرَين الباهرَين « أبى بكر ، وعمر » ، فنرى جلالاً يسحر القلوب والألباب . !! ويأخذنا الأسى ونحن نرى بعضَ الغواشى تغشى ذلك الجلال فى عهد « عثمان » لا بسبب قصور

فى صلاحه وتقواه.. بل بسبب ذلك النفر من الأمويين الذين أساءوا استغلال سلطانهم .. وكذلك بسبب عوامل تاريخية كان لها دورها المسئول (١) .

ثم تشرق الآمال فى عودة ذلك الجلال لمطالعه العظيمة ، وتألقاته الباهرة ، حين يلقى عبء الخلافة على سليل بنى هاشم ، وتلميذ الرسول ، وبطل الإسلام « على » . !!

ذلك أنه ــ كما تُطالعنا سيرته ــ كان رغم كل الفتن التى سبقت خلافته وصاحَبَتها ، قادراً على إرجاع السيادة لفضائل عصر النبوة .

فدينهُ ، وورعُه ، وزُهده ، وعِلمه ، وإخلاصه ، وإخباتُ روحه ، واقتدار عزمه . . .

كل ذلك ــ وكم كانت حظوظه منه وافية ــ هيأه بفضل الله ونعمته ، ليكون فى تلك الأيام التى تلقى فيها أعباء الخلافة ، الرجل الذى ينتظره زمانه ، ومكانه .. وتنتظره المناسبة على فاقَةٍ إليه وشوق .. !!!

أجل ... لقد كان بشخصيته وبسلوكه وبأخلاقه وبضميره وبدينه ، من أقدر العالمين على تجسيد عصر النبوة .. بكل قِيَمه السامية وفضائله العالية ..

فهو رجل ورع من أرفع طراز يدخل الكوفة بعد استخلافه ، فيرفض أن يسكن قصر الإمارة الباذخ ويقول : « إنه فتنة » .. ثم يأوى إلى بيت من طوب نيء يشبه أكواخ الفقراء .. !! ويعمَد إلى بيت المال فيخرج ما فيه ويوزعه على مستحقيه . ثم ينضحه بالماء .. ثم يُصلّى فيه لله رب العالمين إيذاناً بأن المال فى عصره لن يكون فتنة .. بل سيكون رحمة !!!

* * *

ورجلُ صدق وشرف من أرفع طراز ــ يقولون له إن معاوية يتألف

---

(١) راجع كتابنا « وداعاً عثمان » ..

القبائل والجماعات بالمال . فأعط الناس كما يعطى .. ؛ فيقسم أنه لن يرشوَ فى الحق أحداً .. لن يعطى مال الله الذى ائتمنه عليه لغير من يستحقه .. !! ثم يرجونه و يُلحُّون عليه أن يدَع الولاة الأمو يين فى أماكنهم حتى يُبايعوه وحتى تستقر خلافته وعهده . فيرفض و يقول :

« لا والله ، لا أدَعُ الله يسألنى : لماذا أبقيتهم وهم غير أهلٍ لها ساعةً من نهار» ... !! ؟

* * *

ورجل ديمقراطية وشورى من أرفع طراز ـ يخضع لرأى الأغلبية فى موضوع التحكيم ، وهو يؤمن أعمق إيمان بأنه خدعة ستتلوها الكارثة .. ولقد حاول إقناع الذين معه بكل ما أوتى من بلاغة وصدق . ولكن دون جدوى .. وعلى الرغم من أنه آنئذ كان فى حرب قائمة بالفعل مما قد يعطيه الحق فى أن يمضى مع اقتناعه . إلا أنه انحنى فى جلال وعظمة لحق الشورى ورأى الجماعة .. !!

و يتكرر نفس الموقف حين جرى الحوار لاختيار من يمثلهم فى التحكيم ؛ فلقد نادى قوم باختيار « أبى موسى الأشعرى » وراح الإمام يفنّد اتجاهاتهم ، و يدعوهم لاختيار « عبدالله بن عباس » أقدر الناس على مواجهة الداهية « عمرو بن العاص » الذى سيمثل معاو ية فى التحكيم ، ولكنهم أصرّوا ، وكانوا أغلبية ، فتخلّى عن رأيه لرأيهم ...

* * *

ورجلٌ عدالة ورحمة من أرفع طراز لقد كان فى أمسّ الحاجة إلى مؤازرة وُلا ته فى موقفه العسير .. وكان ذلك يقتضيه الملاينة فى محاسبتهم .. لكن يرفض دائماً أن يطلب النصر بالجوْر . !!!

ومن الجوْر عنده أن يتغافل عن أية هفوة من وُلا ته ، وهكذا راح يحاسبهم بعدالة صارمة ، حتى خسر نُصرة الكثير ين منهم دون أن يُلقى لهذه الخسارة بالاً .. !!

وأى صورة للعدالة وللرحمة يمكن أن يرقى إليها حكم كهذه الصورة التى يتجلى فيها « ابن أبى طالب » ودماؤه تنزف وأجَله يسرع ، وقد جئ إليه بقاتله ، فلا يشغل باله ولا يؤرّق حياته فى لحظات وداعها سوى مصير قاتله .. وحين يقدر على الكلام تنفرج شفتاه عن هذه الكلمات :

« يا بنى عبد المطلب !!
لا ألفينَّكم تخوضون فى دماء المسلمين خوضاً ، تقولون : قُتِل أمير المؤمنين ..
أحسنوا نزُلَه .. يعنى قاتِله .. فإن أعش ؛ فأنا أولى بدمه قصاصاً أو عفواً .. وإن أمُتْ ؛ فاضربوه ضربة بضربة ..
ولا تمثِّلوا بالرجل ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إياكم والمُثْلة ، ولو بالكلب العقور» .. !!!

* * *

ورجلٌ نسُك من أرفع طراز ، غزير الدمعة من خشية الله ، دائم الإخبات لله .. يلبس أخشن الثياب ، و يأكل أجْشَب الطعام .. ويحيا بين الناس كواحد منهم ..

وكان نسُكه كخليفة يُتمِّم نُسكه كعابد ، فكان يأبى إلا مشاركة الناس فى كل ما ينزل بهم من ضرٍّ وشظَف .. ويخص نفسه من ذلك بالنصيب الأوفى .. !!

ولقد لخص لنا نسُك خلافته وإمارته فى هذه الكلمات :

« أ أقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين ، ثم لا أشارك المؤمنين فى مكاره الزمان .. !!؟
والله ، لو شئتُ لكان لى من صفْوِ هذا العسل ، ولُباب هذا البُرّ ، ومناعِم هذه الثياب ..
ولكن ، هيهات أن يغلبنى الهوى ؛ فأبيت مِبطاناً وحولى بُطون غَرْثى ، وأكبادٌ حَرّى » .. !!!

* * *

هـذه الـومـضـة مـن حـيـاتـه ومن عظمة منهجه وسلوكه ، تصور على نحو متواضع ، القضية التى نهض يقاتل من أجلها .. قضية استمرار عصر النبوة بـكـل فـضـائـلـه ومـزايـاه ؛ وإنها لقضية جديرة بولاء لا ينتهى ، وتضحيات لاتـفـنـى .. وهى لم تكن بالنسبة للإمام « علىٍّ » قضية خاصة ، ولا قضية شخصية . بل هى قضية الإسلام كله ، وقضية كل مؤمن أوّاب .

وإذا كـانـت الأقـدار ستُـؤثـرُه وأبـنـاءه مـن بـعده ، بأن يكونوا أعظم شهدائها وأشرف قرابينها ؛ فلتكن مشيئة الله ..

إن هـناك من يموتون من أجل الباطل . ومن يموتون فى سبيل الحق ؛ فما مزية الحق على الباطل فى مجال التضحية والفداء .. ؟؟

مزيتـه أن ضحـاياه شريـفـة ورفيعة وغالية .. بينما ضحايا الباطل صغيرة دنيئة مُحقَّرة .. !!

فليكن هو وأبناؤه شرفاً للحق فى مماتهم واستشهادهم ، كما كانوا شرفاً له فى مَحياهم .. !!

وهـكـذا كـان مـن الـصـعـب عليه ، بل من المستحيل أن يترك قضية الإسلام للأهواء التى هبَّت عليه جائحة ، جامحة .

كانت « المُهادنة » مستحيلة ..

وكانت « المُسايرة » أكثرَ استحالة ..

ولم يكن أمامه سوى أن يحمل سيفه وكفَنَه ، ثم يمضى ..

فللمسئوليات العظام خُلِق .. وللتضحيات يعيش ..

وإنـه لـسـلـيـلُ بـيـت ، كانت العظمة دِثاره ، حتى فى الجاهلية وقبل الإسلام ..

وإنـه لـتـلـمـيـذُ ديـنٍ نـشـأ ، ونمـا ، بين أروع الـتـضـحـيـات وأشرفها وأسماها ..

إنه لَـحواريّ رسولٍ جعل صلاته ، ونسُكه ، ومحياهُ ومماته لله رب العالمين ..

فأين يذهب من هذا كله .. ؟؟

وأين يذهب منه أبناؤه الذين ربّاهم على نهجه ، وغذّاهم بفدائيته .. ؟؟ .

وماذا ينتظره و ينتظرهم من أخطار.. ؟؟

الموت .. ؟ القتل .. ؟ الشهادة .. ؟

ليأت الموت ، وليأت القتل ، ولتأت الشهادة . !!!

ليجيء ذلك كله مرة ، وعشراً ، وألفاً .. فذلك دَورهم فى الحياة : أن يعلّموا الناس فى جيلهم وفى كل الأجيال ، أنّ الوقوف إلى جانب الحق ، والتضحية المستمرة فى سبيله هما أصدق مظهر لشرف الإنسان وقداسة الإنسان !! ....

أليْسوا آل بيت الرسول الذى قال :

« والذى نفسى بيده ، لوددتُ أن أقتَلَ فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتَل ، ثم أحيا ، ثم أقتَل » .. !!

بلى .. إنهم أهله وأبناؤه ..

ولقد حَملوا مصايرهم فوق أكفّهم ، ومضَوا إلى مسئولياتهم فى حُبور.. !!

لم يكن هناك مايزعجهم ، سوى أن الحرب التى يخوضونها مضطرين ليست من نوع تلك الحروب التى كانوا لا يلاقون فيها سوى جيوش الوثنية والشرك . فيفلّون سلاحها و يُسوّون أقدارها بالتراب ... !!

ورغم ضراوة الظروف التى فرضت عليهم القتال ، ورغم إلحاحها الدائب ، فإن إيمانهم بأهمية السلام لم يَعدَم من يُجسِّده من آل البيت ، فيقدم فى سبيل حَقن الدماء تضحية أخرى عظيمة .. !!!

ذلكم ، وهو « الحسَن بن على » رضى الله عنه وأرضاه .

فإلى الكوفة .. لنشهد موقفه ، ونقْفُوَ خُطاه ..

الفصل الثالث

السيد يفرضَ السلام

عـندما كان « الإمام على » يجود بروحه الطاهرة على أثر ضربة غادرة تـلـقـاهـا مـن مُـغتال أثيم ، سأله بعض أصحابه أن يستخلف مَن يختار من أبـنـائـه وأهـلـه فـأبـى .. ودعـاهـم أن يختـار الـناس بعد موته مَن يُحبون و يرتضون .

أجـل .. لم يـوصِ لأحـد مـن أبنائه بالخلافة ، فقد كانت هناك وصية أخـرى تـشـغل باله و و يدّخرها لهم . فدعا إليه « الحسن والحسين » وقال لهما :

« أوصيكما بتقوى الله ..
ولا تـبْـغِـيا الدنيا ؛ وإن بغَتْكما .. ولا تأسَفا على شئ منها زُوِىَ عنكما ..
افعلا الخير ..
وكونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً » .. !!!

كلمات جديرة بصاحبها ، ووصيةٌ جديرة بموصيها .. !!

* * *

وتـلـفَّـت الـناس حولهم ، فوقعت أعينهم وقلوبهم جميعاً على رجل واحد بـسـطـوا إلـيـه أيمـانهـم مُـبـايـعين .. كان ذلك الرجل الكريم « الحسن بن على » ، الذى كان أكبر أبناء الإمام الشهيد .

وتلقى « الحسن » البيعة على أثر فراغه من الصلاة على أبيه ودفنه .

تلقاها كارهاً دون أن يتركوا له حق الخيار والاعتذار . إذ قام « قيس بن سعدبن عبادة » بطل الأنصار ، والإسلام . فبايع « الحسن » ، حيث تقدمت على أثره الجموع الحاشدة ، ثم الجموع الوافدة ..

ولم يكد الأمر يستقر للحسن .. ولكن لا .. فإن الأمور يومئذ كانت أبعد ما تكون عن الاستقرار !!

ولقد كانت حُلْكة الأحداث تجعل من قبوله البيعة ؛ فالخلافة ، تضحية من أكبر التضحيات .

ولعل شيئاً ما ، لم يُعِنِ « الحسن » على تقبلها مثلما أعانه ذلك الأمر الذى وقَّر فى صدره منذ يَفاعته وشبابه .

ذلكم هو حبه الوثيق للسلام ، ونُبوءة الرسول له منذ طفولته بأن الله سيحقن به دماء المسلمين فى يوم من الأيام .. إن أصحاب رسول الله يذكرون ذلك اليوم الذى صعد فيه الرسول منبره ، وقد صحب حفيده « الحسن » وكان طفلا يحبو . حيث أجلسه إلى جواره ، وضمه إليه ، وقال :

« إن ابنى هذا سيِّد ..
وعسى الله أن يصلح به بين طائفتين من المسلمين » .

والآن ، يجئ الأوان المناسب ــ أوفى ما تكون المناسبة ــ لتحقيق هذه النبوءة الصادقة . !!

وها هو ذا أمير المؤمنين « الحسن بن على » يواجه المواقف بتقدير ين :

أحدهما نابع من طبيعته وشمائله ..
وثانيهما ، منبعث من ظروف المعركة وآثارها ..

فأما عن الأول ؛ فقد كان الحسن بطبيعته يؤثر السلام على الحرب . وكان يألف الأناة . ويختار فى معالجة المشكلات أقربَ الحلول من السكينة والقصد ..

* وعلى سبيل المثال ، نراه حين حوصِرت المدينة فى عهد الخليفة « عثمان » وحوصرت دار الخليفة نفسها ، واستنفد الإمام « على » طاقته وجهده فى إطفاء الفتنة دون جدوى . يتقدم هو لأبيه الإمام برأيه فى أن يُغادر الإمام المدينة ؛ حتى لا يُقتل الخليفة وهو بها فيتخذها خصومه وحُسَّاده مادة للتشويش حوله .. !!

* وكذلك حين استشهد الخليفة « عثمان » وعرَض الثوار الخلافة على « الإمام على » فرفضها ، ثم عُرضت على آخرين من الصحابة فلم يكن أمامهم سوى الرفض تأسِّياً بعليّ .. ثم زحفت الفوضى تهدد كل شئ ، فعاد الثوار إلى « على » ومعهم قادة الصحابة المسلمين يلحون عليه بقبولها فقبلها مُكرهاً ...

يومئذ ، كان للحسن رأى آخر يتَّسق مع طبيعته ، فَحواه أن يرفض أبوه البيعة ، حتى تأتيه بإجماع المسلمين من كافَّة أقطار الدولة .. !!

ولقد كان يعلم أن البيعة تنعقد شرعاً وعُرفاً بمن حضر الحرَمَيْن من المهاجرين والأنصار. لكنه إمعاناً فى نشدان السكينة وتجنّب الفتنة ، رأى أن يركب « الإمام » الصعب من الأمور ، و ينتظر مهما تكن الظروف بيعة جميع الأقاليم ..

* ومثَل ثالث : موقفه حين خرجت « السيدة عائشة » ومعها « طلحة والزّبيْر » إلى البصرة ، ليحرضوا أهلها ضد قتلة « عثمان » .

يومها رأى « الإمام على » وقد أصبح بحكم خلافته مسئولاً عن أمن الدولة وسلامة الأمة .. رأى أن يخرج وراء هذا الركب ليلوى زمامه عمَّا عساه يُثير حرباً أهلية ، و يشجع حكام الشام على التمرد والعصيان .. !

لكن « الحسن » استجابة لطبيعة المسالمة ، رأى أن يبقى أبوه بالمدينة ، بل وأن يعتكف فى داره حتى تمر الفتنة بسلام .. !!

هذه المواقف الثلاثة تكشف عن طبيعة صاحبها ، وعن مدى تعلُّقه بالأناة ، وإيثاره السلام .

وأما عن التقدير الثانى ، الذى أزْجَتْه ظروف الحرب وآثارها ، فإن الحرب التى خاضها « الإمام على » كانت قد فجَّرت من المشاكل والهموم مايهدّ الجبال .

وكانت آثارها المرهقة ، قد أجهدت المجتمع والدولة كليهما .

وكان « الحسن » وهو يتلقَّى البيعة بيمينه ، يرنّ فى سمعه صدى كلمات أبيه الناقة والآسفة التى وجهها فى أخريات أيامه لأهل الكوفة الذين كانوا ــ وهم أنصاره ــ أشدّ إرهاقاً له من خصومه .. !!

« .. أما والله لوددتُ أن الله أخرجنى من بين أظهُركم ، وقبضنى إلى رحمته من بينكم ..
فقد والله ملأتم صدرى غيظاً ، وجرَّعتمونى الأمَرَّين أنفاساً ، وأفسدتم علىَّ رأيى بالعصيان ؛ حتى قالت قريش : إن أبن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لاعِلمَ له بالحرب ..
لله أبوهم !! هل كان فيهم أشدّ لها مراساً وأطول مُعاناةً منى .. ؟؟
لقد نهضت فيها ومابلغت العشرين .. وهاأنذا اليوم . وقد عدوتُ الستين .. ولكن ، لارأىَ لمن لايُطاع » .. !!!

كانت هذه الكلمات للإمام ، يُدوى فى سمع « الحسن » صداها ..
كما كانت تلحّ عليه فى وضع نهاية للصراع الذى حاول أبوه أن يتحاماه دون جدوى .

ولكن ذلك لا يعنى بحال . أنه آثر السلام وهو فى « مركزّ ضعف » . .
لا ، بل آثره وهو فى « مركز قوة » مَكين .

يقول « الحسن البصرى » رضى الله عنه :

« استقبلَ والله الحسنُ بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال .
فقال عمرو بن العاص لمعاوية : إنى لأرى كتائب ، لا تولّى
حتى تقتل أقرانها ، فقال معاوية : إذا قتل هؤلاء أولئك ، فمن
لى بأمور الناس » .

ورغم ما كان بأهل الكوفة من تفسُّخ وتردّد ؛ فقد كان تحت تصرف « الحسن » حين آثر السلام أربعون الف مقاتل ، يُشكّلون جبهة واحدة ، قوية وصامدة .. تحت إمرة رجل من أعظم رجال الإسلام وقوّاده ــ ذلكم هو: « قيس بن سعد بن عبادة » ..

ولقد كانوا مصممين على مواصلة الحرب ضد معاوية تصميماً حمل بعضهم على مُجابهة « الحسن » حين رأوه يعتزم الصلح وإقرار السلام مجابهة قاسية وعنيفة رغم حبهم له وتوقيرهم إياه .

* * *

هو إذن لم يؤثر السلام على ضعف ولا عن عَجز .

ولم تكن الظروف العسيرة التى تسلم الخلافة فيها لتجاوز قدرها فى كونها مجرد « موضوع » لتفكيره فى السلام ..

أما « مصدر » تفكيره فى السلام فكان طبيعته وخِصاله .

وهكذا قرر أن يعرِض ، بل أن يَفرِض السلام على معاوية ..

وقولنا « يفرض » السلام ، تعبير لا مُبالغة فيه ؛ فقد تغلّب على ظروف كثيرة لكى يجعل السلام حقيقة ناجزة .

وحسبنا أن نعلم أن أخاه « الحسين » مضى شوطاً بعيداً فى معارضته حتى قال له « الحسن » :

« لقد هممتُ أن أحتجزك فى دار موصدة الأبواب ، ثم لا أدعُك تخرج حتى أنتهى مما أريد » .. !!

* * *

كان « معاوية » قد تحرك بجيشه من الشام قاصداً الكوفة . عندما علمَ باستشهاد الإمام واستخلاف الحسن ..

وكان الحسن . قد خرج على رأس جيشه للقائه .

وإذْ هم فى طريقهم إلى المدائن ، نهض بين صفوف جيشه وقال :

« إنى قد أصبحتُ ، لا أحمل لمسلم ضغينة :
وإنى ناظر إليكم ، نظرى إلى نفسى ، وقد رأيت رأياً ؛ فلا تردّوا علىَّ رأيى :
إن الذى تكرهون من الجماعة ، أفضل مما تحبون من الفُرقة » .. !!

وثار الجيش — كما ذكرنا من قبل — لكنه كان قد وطَّد عزمه على حقن الدماء .

وكان معاوية من جانبه يتوق للسلام توْق الغريق إلى زورق النجاة ..

فأرسل مبعوثين إلى المدائن ، للتفاوض مع « الحسن » وكانا : عبد الرحمن ابن سَمُرة .. وعبد الله بن عامر .. أبلغها « الحسن » شروطه التى لم يكد معاوية يسمع فيها بعد ، حتى تقبلها فى غير تردّد أو تساؤل .

وتركزت شروط « الحسن » للصلح فى هذه البنود الأربعة :

أولاً : أن ترجع الخلافة بعد معاوية إلى المسلمين حيث يختارون بمشيئتهم الحرة ، من يرونه أصلح لقيادتهم وأجدر.

ثانياً : ألاَّ يؤخذ الذين ناصروه وناصروا أباه الإمام من قبل بما صنعوا ضد معاوية ، وألاَّ يحرَم أحد منهم حقه وعطاءه ..

ثالثاً : أن يكُف الأمويون عن حملة السّباب واللعن التى يقترفونها ضد الإمام . و يشجعون عليها ..

رابعاً : أن يكون عطاؤه وعطاء أخيه « الحسين » وافراً وجزيلاً . ولقد حدد بنفسه مقدار هذا العطاء ..

وإذا كان هناك من بين هذه الشروط ما قد يلتبس علينا أمره ، ويحتاج إلى مناقشة وتفسير ، فذلكم هو الشرط الرابع والأخير.

لقد يبدو غريباً أن يُفرط رجل مثل « الحسن » بن على ، وحفيد الرسول فى طلب عطاءٍ كثير له ولأخيه ..

ولكن ، كما يقال : إذا عُرِف السبب ، بُطل العجب ..

وحسبنا أن نعرف فيم كان ينفق « الحسَنان » أموالهما لندرك على الفور الحكمة فى هذا الاشتراط .

وقبل هذا ، علينا أن نذكر أن ميزانية الدولة الإسلامية ، كانت ايامئذ قد بلغت مدى هائلا من الكفاية والثراء .

و بدأ ذلك النمو المطرد منذ فتوح الإسلام فى عهد « عمر » .

وفى عهد معاوية ، كانت أموال غزيرة تُنفق وتُبعثر فى سبيل دعم حكمه وتركيز الولاء له .

بينما كان « الإمام على » وهو خليفة مسئول فى العراق يعطى المسلمين حقوقهم من بيت المال بالسَّوية ، رافضاً أى تمييز أو سَرف .. !!

حتى لقد أغضب بعض أنصاره ، حين رفض أن يتألف الناس بالمال ، ويختص بعض القبائل بأكثر من حقها ، قائلاً عبارته المأثورة :

« أتأمروننى أن أطلب النصر بالجوْر» ؟ !

والآن ، بعد أن يتصالح الحسن ومعاوية و يصبح أمر الخلافة كله له ، فلن يكون هناك سوى بيت مال واحد هو هذا الذى يشرف عليه معاوية بحكم سلطته وسلطانه .

و« معاوية » يعطى الأموال وَفْق مقاييسه الخاصة ..

فماذا يكون الموقف إذا أخلف صلحه أو بعض صُلحِه غداً ، فكفَّ العطاء أو بخل عن بعض أولئك الذين كانوا من قبل يناصرون « الإمام » و يناصرون « الحسن » ؟؟

لابد للحسن إذن أن يتحوَّط لهذا الاحتمال ..

وهنا يُفضى بنا الحديث إلى حيث نعرف أين كان ينفق « الحسن والحسين » أموالهما ..

لقد كانا يعودان بالكثير منها على نفر من الذين فقدوا ثرواتهم فى سبيل القضية التى ناصروا فيها الإمام .

وكانا يُغدقان برَّهما ونَداهما على أولى الأرحام ، وعلى الفقراء والمساكين ..

لقد انفرد « الحسن » بأنه الرجل الذى قاسَم الله مالَه ثلاث مرات .. وخرج عنه كله مرتين .. !!

ورجل هذه شيمته ، لا يطلب المال ليُترف به ، إنما يطلبه ليؤدى به

حقوقاً كثيرة ، أهونُها كفالة الأرامل والأيتام الذين استشهد أزواجهم وآباؤهم وهم يقاتلون تحت راية الإمام .. !!

فمن أجل تلك الحقوق ، ومن أجل شغَفه بالخير والبر اشترط لنفسه ولأخيه وَفْرة العطاء ..

وحسبنا فى هذا المقام شهادة « معاوية » نفسه ، فذات يوم أعدّ أحمال الهدايا التى كان يرسلها بين الحين والحين لصفوة الصحابة فى مكة والمدينة .

وبينا القافلة تتهيأ للسفر، نظر معاوية فيمن حوله وقال لهم : « إن شئتم أخبرتكم بما يصنع القوم بهذه الهدايا » ..

ثم راح يسمّى بعض الأسماء ، و يسوق الحديث عنها ، حتى جاء ذكر « الحسن والحسين » فقال :

« .. وأما الحسن ، فلعلّه يدَع لزوجاته بعض الطيِّب ، ثم يترك لمن حوله كل شئ .. !!
وأما « الحسين » فيبدأ بأيتام الذين قُتلوا مع أبيه فى صِفّين ، فإن بقى بعد ذلك شىء نحرَ به الجزر، وسقى به اللبن » .. !!

أجل .. هذه شهادة « معاوية » .. وفيها فصل الخطاب !!

ومن فصل الخطاب أيضاً ، أن العطاء الجزيل الذى فُرض لهما ، لم يكن يكفيهما ، مع أنهما لم يُعرف عنهما قط عيش المترفين ولا حياة المسرفين . !!

ولقد تراكم على « الحسين » دَين ثقيل ، وانتهز معاوية الفرصة فعرض عليه قدراً كبيراً من المال يقضى به ديونه ، نظير بيعه عين ماء كانت للإمام « على » بالمدينة ، وكان الإمام قد أهداها فقراء المدينة وأهلها ، يرتوون منها بغير حساب .. ورفض « الحسين » هذا العرض ..

ففيم إذن كانت هذه الديون رغم وفرة العطاء لقوم لا يحيَون فى ترف ولا فى سرف .. ؟ !

إنها كانت بسبب حقوق مذخورة ، وعطايا مبرورة تعوَّدها الكرام ، أبناء الكرام .. !!

قبِل معاوية شروط الصلح من فوره ، وتنازل له الحسن عن الخلافة .. وسارع معاوية إلى الكوفة ليتلقى بيعة أهل العراق .

وفى الجمع الحاشد من المسلمين ، دعا « الحسَن » لإلقاء كلمة ، فوقف « الحسن » والأبصار شاخصة إليه ، والأنفاس معلَّقة بشفتيه اللتين لا يدرى أحد عن أى نوع من القول ستنفرجان ..

وجاءت كلماته فى تلك المناسبة على وِفاق سعيد ومجيد مع صاحبها العظيم . !!

قال بعد أن حمِد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ..
إن الله هداكم بأوَّلنا .. وحقَن دماءكم بآخرنا .. ألا إن أكْيَس الكَيْس التُّقى ، وإن أعجز العجز الفُجور .. وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه ومعاوية : إما أن يكون أحقّ به منى ، فقد تركتُه له ..
وإما أن أكون أحقّ به منه فقد تركته لله عز وجل ، ولخير أمة محمد صلى الله عليه وسلم وحقْن دمائها » ..

ثم التفت صوْب معاوية وقال :

(وإنْ أدرى لعلَّه فتنة لكم ومتاع إلى حين) .. !!

إن العظمة الإنسانية لتكشف عن أصالتها فى مثل هذه المواقف ، وبمثل هذه الكلمات .. حيث يلتقى الصدق ، والقوة ، والترفّع ، والحكمة أسعد لقاء .. !!

ومضى كلٌّ إلى سبيله ..

معاوية إلى الشام عاصمة ملكه العريض .. و« الحسن » إلى المدينة ، قرير العين بما حقن من دماء ، عظيم الغُنْم بما بذل من فِداء .. مردِّداً كلماته المضيئة هذه :

« لقد كانت جَماجِم العرب بيدى فى العراق ، تُسالم من سالَمْت .. وتحارب من حاربت .. ثم تركتُها ابتغاءَ وجه الله » .. !!

ولقد وفَّى بعهده مع معاوية . ووفَّى بالعهد معه أخوه « الحسين » الذى كان قبل إبرام الصلح من أشدّ مُعارضيه .

تُرى ، هل سيَفى معاوية . ؟ أم أن إغراء السلطة المطلقة سيجشّمه مشقَّة الوفاء .. ؟؟

على أية حال ، فقد أدّى الحسن ما اعتقده واجباً ، وأعطى من ذات نفسه ما هو أهلٌ له .

لقد ترك للآخرين دنياهم ، وعكَف هو على الطاعة ، والعبادة والخير ..

* عابداً : يحب الله ويخشاه ، ويخرج إلى الحج من المدينة إلى مكة أعواماً كثيرة ماشياً على قدميه والنجائب تُقادُ بين يديه ، حتى إذا سئل عن سبب هذا الإجهاد لنفسه أجاب :

« إنى أستحى أن ألقى ربى ، ولم أمشِ على قدمىَّ إلى بيته » .. !!

* جواداً : لم يكن يُبقى من ماله شيئاً .. لا يعرف مكروباً إلا فرَّج كُربته ، ولا غارماً إلا قضى دَينه ..

* سيِّداً : لا يعرف الدنيَّة ولا يقبلها ، ولا يعرف السوء طريقاً إلى لسانه ومقاله ..

يقول « محمد ابن اسحاق » :

« ما رأيت أحداً كان إذا تحدث تمنَّيتُ ألاَّ يسكت ، مثل الحسن بن على .. وما سمعت منه كلمة سوء قط .. وإن أشدَّ كلمة سمعتها منه ، هى تلك التى قالها حين وقعت خصومة بينه و بين عمرو بن عثمان ، فقال الحسن : ليس له عندنا إلا ما رغِم أنفه .. تلك أشدّ كلمة سمعته يقولها » .. !!

ولقد تحدّث ــ رضى الله عنه ــ راسماً للناس صورة المؤمن المثالى الرشيد ، فقال :

« إنه مَن تصغُر فى عينه ويخرج على سلطان بطنه ، وفرجه ، وجهله ..

لا يسخط ولا يتبرّم ..

إذا جالس العلماءَ ، كان على أن يسمع أحرصَ منه على أن يتكلم .. وإذا غُلب على الكلام ، لم يُغلب على الصمت ..

لا يشارك فى ادِّعاء .. ولا يدخل فى مِراء ..

لا يغفُل عن إخوانه ، ولا يختصّ نفسه بخير دونهم .

وإذا تردَّد بين أمرين ، لا يدرى أيهما أقرب إلى الحق . نظر أيهما أقرب من هواهُ ، فخالفه واتَّقاه » .. !!

* * *

هذه خلاصة لدستور ومنهاج نفسه ، أفلا يكون قرير العين إذن بهذا السلام الذى سيوفر له فرصة العكوف على فضائله ومزاياه يُنمِّيها

و يزكّيها .. ؟! بلى .. ولقد استقر وأخوه وآل بيتها بمدينة رسول الله ..

ولم تكد تنزاح عن الناس فى شتى الأقطار غمرات ما كانوا فيه من خلاف صراع ، حتى راحت أرواحهم تهفو نحو المدينة ، وخواطرهم تطوّف من قريب و بعيد حول ريحانتى رسول الله ..

ومع مرور الأيام ، كان تطلُّع المسلمين إلى المدينة بما فيها من هدىً ونور ، يفوق تطلعهم إلى دمشق رغم ما فيها من دنيا وإغراء .. !!

وراحت مجالسهم وندواتهم فى كل بلد تردد ما نقله الثّقات من أصحاب الرسول عن حبه لأبنيه « الحسن ، والحسين » .

كان الناس يسمعون و يتناقلون أنباء هذا الحب العظيم الذى أضفاه عليها جدّهما النبى ، فتكاد أفئدتهم تطير شوقاً إليهما .. حتى بعض أولئك الذين ناصبوهُما مِن قبلُ العداء .

وراح المسلمون يرددون تلك الأحاديث التى تصور قدرَهما ، والتى حباهما الرسول بها كثيراً :

« الحسن ، والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، بعد عيسى و يحيى » ..

« هذان ابناى .. وابنا ابنتى .. اللهم إنى أحِبها فأحبَّها ، وأحِبَّ من يُحبها » ..

« اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهِب عنهم الرجس ، وطهِّرهم تطهيراً » ..

« الحسن ، والحسين ريحانتاىَ من الدنيا » .

« حُسينٌ منّى ، وأنا من حسيْن ، أحبَّ الله من أحبَّ حُسيناً » ..

وهكذا استولى على الناس ولعٌ نبيل ، بتتبع أنباء حياتهما ــ مذ أهَلاَّ على الحياة .. !!

كيف اختار الرسول بنفسه اسميهما .. ؟ كيف كان يداعبهما .. ؟
كيف كان يحزن أن يسمع بكاءهما .. ؟

وراحت الوفود من كل مصر تشدّ رحالها إلى المدينة لتلقى بها ابنىْ رسول الله وأحب الناس إليه ، ولترتشف من حكمة « الحسن » الذى عكف على إلقاء الدروس والعظات بمسجد الرسول ..

وكانت حلقات درسه غاية فى الجلال والمهابة ..

وصفها معاوية نفسه فقال :

« إذا دخلت مسجد رسول الله ، فرأيت حَلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير؛ فتلك حلقة أبى عبدالله الحسين » .. !!

كذلك أخذ الشاكُون من ظلم وُلاة معاوية واستهتارهم ، يغذّون السير إلى المدينة حاملين شكواهم إلى « الحسن والحسين » فيدعُوان الناس للصبر، ويرسلان لمعاوية بالنُّصح ..

تُرى ، هل سيصبر بيت أبى سفيان على هذه المكانة المتصاعدة دوماً فى قلوب الناس للحسن وأخيه وأهل بيته .. ؟؟
كلا ..

وذات يوم ، دُسَّ للإمام الحسن السُّمّ فى الطعام .. !!!

* * *

ويُمسك التاريخ فى هذه الجريمة الدنيئة ، بإحدى زوجاته وهى — جعدة بنت الأشعث بن قيس — كما يمسك بأصابع الغدر الأموى ... ومن عجب أن الأشعث بن قيس ، والد جَعْدة — ، كان من أبرز أنصار الإمام علىّ .. ثم كانت له أثناء خدعة التحكيم وبعدها مواقف مشبوهة ، ومحاولات مريبة .. كانت سبباً فى أكثر ما نزل بالإمام يومها من آلام وأخطار .. !!

* * *

إلا لتستكمل بالشهادة والفداء ، شرف الانتماء إلى بيت القرابين والشهداء .. !!!

* * *

و بعد .. فقد آن لبطل السلام أن تُزفَّ إلى الجنة روحه .

ولكن لا تزال امامنا وصيةٌ ير يد أن يوصى بها ، فقد كان شوقه عظيماً لأن يُدفن مع جده الرسول ..

وكان قد استأذن « السيدة عائشة » فى ذلك ، فأذِنت له ..

والآن ، وشمس حياته تميل للغروب قال لأخيه الحسين :

« إذا متّ فادفنى مع النبى ، فإنى كنت قد طلبت ذلك من عائشة وأجابتنى .. وإذا عارضك بنو أمية ، فلا تراجعهم ، وادفنى فى البقيع » .. !!

ومِن أسف أن الذى توقعه قد حدث .. فرفض مروان بن الحكم أمير المدينة من قِبل معاو ية أن تُحقَّق رغبة الشهيد المسَجّى .. وأنزَل إلى الشارع حرسه المسلَّح فى خسَّة ودناءة ، تليقان بمروان ، وبمن على شاكلة مروان .. !!

ورأى « الحسين » رضى الله عنه ذلك ، فانتضى سلاحه ، وصمم على إنفاذ وصية أخيه ..

لكنّ نفراً من الصحابة الأجلاّء ذكَّروه بالفقرة الأخيرة من الوصية وحمَلوه عليها :

« فإن منعوك ، فلا تُراجعهم ، وادفنّى فى البقيع » ..

* * *

وشَرُفَ ثرى البقيع بهذا الضيف المجيد ..

وآبتْ إلى وطنها فى جنات الخلد ، روح السيِّد .. وروح الشهيد !! ...

ومرض « الحسن » عليه السلام مرض الموت .

و بقيت أصالة فطرته وإيمانه متألِّقة ، حتى تحت وطأة هذا الاغتيال الخفيّ ، والسُّقم الفاجع الأليم !!

ففى عِلـَّته هذه ، أخذ أخوه « الحسين » يُلحّ عليه كى يبوح له بمن يعتقد أو يظن أنه صاحب هذه الجريمة النكراء .

لكن حفيد الرسول العظيم ، لاينسى مبادئه تحت سَحْق آلامه ، فيسأل أخاه :

« وفيمَ سؤالك عمَّن سقانى السُّم .. ؟
أتريد أن تُقاتلهم .. ؟
لا .. إنى أكِلُ أمرهم إلى الله .. !!

انظروا ..

إنه حتى فى غمرة الموت لاتتخلف إرادته عن مبادئه ، و يبقى رجل الأناة والسلام فيه ، متفوقاً على الألم ، وعلى الكراهية .. بل وعلى حقه العادل فى القصاص المشروع .. !!

وراح يملأ أيامه الباقية بالصلاة والدعاء ، مُردِّداً منها ذلك الدعاء الذى كان جَدّه الرسول قد علَّمه له منذ شبابه .

« اللهم اهدِنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافَيْت ، وتوَلـَّنى فيمن تولَّيت ، و بارك لى فيا أعطيت ، وقِنى شرَّ ما قضيت ، فإنك . تَقضى ، ولا يُقضى عليك ، وإنه لا يذِلّ من والَيت ولا يعزّ مَن عاديت تباركتَ ربَّنا ، وتعاليت » ..

لقد هداك الله ــ أبا محمد ــ وعافاك ، وتولاَّك ، و بارك لك فيا أعطاك ..

وما تركتْ مقاديرك العظيمة جُرعة السّم تأخذ طريقها إليك ،

الفصل الرابع

العاصفة تزأر

خلّص الملك لمعاوية على النحو الذى أراد .. وبتنازل «الحسن» له عن الخلافة سكنت كل الرياح التى كان يخاف هُبوبها على عرشه وحكمه .. فراح يُصرّف شئون امبراطورية من أقوى امبراطوريات عصره كما يهوى وكما يشاء . وراح يستخدم مزاياه الشخصية وكفايته ، كما يستخدم كفاية الذين حوله أبرع استخدام .

راح يوجه كل المزايا وكل الكفايات نحو غاية واحدة هى دعْم سلطانه .

فحلمه ، ودهاؤه ، وعطاؤه .. كل ذلك يسعُ الناس ماتركوه وسلطانه . ؛ فإذا هدّد هذا السلطان شئ ، فالحلم والدهاء ، والصبر ، والعطاء .. أسلحة تنزل إلى المعركة لتدفع عن السلطان مخاوفه .. فإذا عجزت ؛ فالسيف والقتل بغير إبطاء !!

وإن له فى ذلك عبارة مأثورة :

« إنى لاأحول بين الناس وبين ألسنتهم ، مالم يَحولوا بيننا وبين سلطاننا » .. !

ولطالما يحدثنا التاريخ عن قوم كانوا يجبهونَه بقوارص الكلم فى وجهه وأمام الناس ، فلا يزيد على أن يضحك . ثم يضحك .. ثم يُجزل لهم العطاء !!

ولقد كتب يوماً لزياد ، واليه على الكوفة والبصرة يقول له :

« إنه لاينبغى أن نسوسَ الناس بسياسة واحدة ، فيكون مقامُنا مقام رجل واحد ..

ولكن تكون أنت للشِّدَّة والغلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا » .. !!

ولو أن معاوية ــ غفر الله له ــ كان أكثر اهتماماً بسلطان الإسلام منه بسلطان بنى أميَّة ، لوفَّر على الإسلام وعلى المسلمين كثيراً من المخاطر والمهالك التى أفضى إليها حرصُه على ذلك السلطان ..

لقد جشَّمه ذلك الحرص من الشَّطط ما كان يعود عليه نفسه بالغُرم الأكيد .

وإنا لنذكُر ــ مثلا ــ تشجيعه النزعة القبلية بإيثاره فى العطاء وفى المكانة بعض القبائل على بعضها الآخر ، فهو يُغدق على « اليمانيَّة » ويميزهم فى العطاء . ويجعل لهم كياناً عسكرياً قائماً بذاته .. ثم لايلبث أمرهم أن يعلو و يتفاقم ، حتى راحوا يمنُّون عليه بما هو فيه من سلطان ، و يقولون : لولا نحن ما كان معاوية .. فيضطرب الأمر فى يده و يُعالج الموقف بخطأ جديد حين يتجه إلى قبائل « القيْسيَّة » فيُغدق عليهم الأموال والامتيازات .. ثم لايُجديه ذلك شيئاً ، فيُرهق نفسه فى التوفيق بين القوتين الكبيرتين من جديد ..

كذلك نرى أن الحلْم الذى لم يعرَف فى التاريخ بمثل ما عُرِف به ... نرى هذا الحلْم وهو أبرز خلائقه ومميزاته لايغنى عنه شيئاً فى دَرءِ صفة القسوة والقتل عن عصره وحُكمه .. فمصرع « حُجر بن عدِىّ » وأصحابه بأمر معاوية وعلى مقربة من قصره بالشام بغير جريرة ولا ذنب ، حدَثٌ يُجلِّل سلطان معاوية بالسوء ..

لقد كان حادثاً بشعاً ، حتى لقد ندم هو نفسه على اقترافه ، وبقى إلى آخر عمره غُصَّة تُفزعه وتُضنيه ..

ثم وصيته إلى ولده يزيد أن « إذا خرج عليك عبدالله بن الزبير فظفرت به فقطعه إرْباً .. إرْباً » !! ..

ثم قسوة ولاته ، واستعلاؤهم على المسلمين بصورة تُثير غيظ الحليم . !!

وإنّا هنا ــ فى مصر ــ مثلاً ــ لنحفظ ونذكر خطبة أخيه عتبة بن أبى سفيان الذى ولاّه أمرها بعد موت « عمرو بن العاص » إذ استهلّ حكمه وولايته بأن جمع أهل مصر الطيبين الوُدعاء ، وقام فيهم خطيباً بهذه القوارع :

« ياحاملى ألأم أنف رُكِّب بين أعين .. !!
إنى إنما قلَّمت أظافرى عنكم ؛ ليَلين محسناً لكم ، فأما إذْ أبيتم إلا الطعن على السلطان ، فوالله لأقطّعن بطون السياط على ظهوركم .. فإن حسَمتْ أدواءكم ، وإلا فالسيف من ورائكم ..
يا أهل مصر .. قد كنتم تُعذْرون ببعض المنع منكم لبعض الجوْر عليكم .. وقد وليكم من إذا قال فعل .. فإن أبيتم درَأكم بيده ، فإن أبيتم درَأكم بسيفه ..
إن البيعة شائعة .. لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل » . !!

* * *

إن للسلطة ضراوةً لا تقاوَم ، إذا هى بسطت إغراءها ونفوذها على الحاكم يرى فيها غُنْماً لا تضحية .. وزهْوا ، لا واجباً ..

ونحن لا نريد الطعن فى معاوية ؛ فإن منهجنا أن نحترم كل

الاحترام ، مَن صحِبَ رسول الله وصلّى وراءه .. وجلس بين يديه .. وقاتل تحت لوائه .. مفوِّضين أمره فيما يكون له من خطأ إلى الله ..

بيد أننا خلال قيامنا بواجبنا فى تحرِّى الحقيقة فى هذه القضية التى ندرسها ، لانملك إلا إبداء الأسف الشديد ، والجزع الأشد لهذا النهج الذى سار عليه مؤسس دولة الأمويين . لاسيما حين اتخذ أفْدح قراراته ، وأكثرها ضراوة وبؤساً .. ذلكم هو أخذ البيعة لولده ــ يزيد ــ وفرضُه على الدولة المسلمة وعلى الأمة المسلمة ، الأمر الذى يعنينا الآن بحثه ، والذى كان السبب المباشر والأوحد فى مأساة « كَربَلاء » .. وفيما تلا « كرْبلاء » من أهوال شهدتها مكة وشهدتها المدينة على نحو أليم ووبيل .. هذه الأحداث التى كانت هى الأخرى سبباً مباشراً فى ضياع الملك من بيت معاوية وذريته إلى الأبد بعد أربع سنوات من وفاته ، ثم انتقال هذا الملك إلى بطْن من بطون بنى أمية ، أولئك هم بنو مروان ..

لقد اهتزت أعطاف « معاوية » بالإمارة والملك ، أربعين عاماً كاملة .. عشرين عاماً ، أميراً .. وعشرين عاماً ، ملِكاً ..

أفما كان يكفيه ذلك ، ثم يترك الأمر من بعده لاختيار المسلمين ، ليكون فى ذلك على الأقل وفاء بالعهد الذى أبرمه مع « الحسن » والذى كان أهم شروطه للتنازل له عن الخلافة .. ؟؟

إن ذلك لم يحدث .. ولقد قرَّر معاوية .. بتدبير منه ، أو بإيحاء من بعض مُشيريه ، أو بهما معاً ، أن يستبقى السلطان فى بيته وأسرته ، واختار لذلك أبعد الناس عن الصلاحية للأمر ولده « يزيد » ..

فحين أحسَّ خُمود صحته ، ودنُوَّ نهايته ، شرع على عجل يفرض ــ يزيد ــ على الناس ويهيئ له مكانه ..

وبدأ بالمدينة حيث كان بها نفرٌ جليل من بقية الصحابة ..

ولم يكد واليه عليها وقريبه في نفس الوقت ــ مروان بن الحكم ــ يعرض الأمر على المسلمين الذين احتشدوا في المسجد الكبير، حتى جابهته مُعارضة رهيبة. لقد وقف «عبدالرحمن بن أبي بكر» يقول لمروان:

«والله، ما الخيارَ أردتم لأمّة محمد.. ولكنكم تريدون أن تجعلوها هِرَقليّة، كلما مات هِرَقل، قام هِرَقْل..».

وتلاه «الحسين» فرفض في كلمات قواطعَ هذا العبث بمصاير الإسلام والمسلمين..

وتلاه «عبدالله بن الزبير» فدَمْدَم على مروان وعلى معاوية بكلماتٍ كألسنةِ اللّهب.. !!

وأبلغ أمر المعارضة إلى معاوية، فلم يحمله ذلك على إعادة النظر في قراره. بل دفعه إلى الإيغال في سرعة إنجازه.

فأرسل إلى ولاته الآخرين على بقية الأمصار، آمراً إياهم أن يسوقوا الوفود إلى الشام كي تبايع ليزيد..

وشهدت الشام مهزلة البيعة ومأساتها على نطاق واسع، بعد أن أدّى الذهب والسيف دورهما في حمل الناس على المبايعة.

ولكن موقف «المدينة» ظلَّ يؤرِّقه، فقرر السفر بشخصه إليها.

وهناك حاول إقناع زعماء المعارضة ــ عبدالله بن الزبير، والحسين بن علي، وعبدالله بن عمر. فلما أعْيَته الحيلة لجأ إلى القوة في مظاهرة مسلّحة عجيبة.. !!

لكن الزعماء الثلاثة صمدوا، ولم يتحرك منهم لسان ببيعة.. وأمام مناورة الموت التي فاجأهم بها معاوية، لاذوا بالصمت، فاستغلَّ هو صمتَهم وأذاع في الناس أنهم مبايعون.. !!

لقد برّر معاوية أخذه البيعة ليزيد بحرصه على عدم نشوب الخلاف

والصراع من جديد بين المسلمين ..

وإنه لتبر يريُدينه أكثر مما يشفع له .. !!

فلماذا خشى الصراع والفتنة إذا هو لم ينقل الملك الى يزيد.. ولم يخشهُما إذا هو وسَّد الأمر لغير أهله وسلَّم قيادة الدولة المسلمة إلى أكثر العالمين بُعداً عن الصلاحية لها ، وهو يزيد .. ؟؟ !!

إن هذه النظرة تكشف بوضوح عن أن معاوية كان ينظر إلى الأمر على أنه ــ كما قلنا من قبل ــ سلطان بنى أمية ، أكثر مما هو سلطان الإسلام وسلطان المسلمين .. !!

ووضع المسألة على هذا النحو ــ وهو وضع صحيح ــ يجعل المقاومة أمراً محتوماً وقدَراً مقدوراً ..

ولقد بدأت المقاومة بامتناع « الحسين ، وابن الزبير ، وابن عمر ، وابن أبى بكر » بالمدينة عن البيعة ..

وبدأت بالتذمُّر الكالح الذى ملأ صفوف الجماهير فى كل مكان .. والذى ارتفع به الصوت داخل الأمويين أنفسهم الذين كانوا يشمئزون من يزيد ، ويرون بين رجالهم من هو أحق وأجدر .. كذلك شاع على ألسنة الذين بايعوا من عامَّة الناس مُكرهين ..

ذلك أن « يزيد » كان شاباً عابثاً لاهياً .. والتاريخ يصوره دائما بين بطانته ، وهى بطانة سوء ، يلهون ، ويشربون ، ويعربدون ..

وحتى حين أراد أن يُضفى على سيرته بعض التصوّن والوقار ، فأرسله إلى مكة حاجاً ، ولم يُغنه ذلك شيئاً ، فقد اصطحب يزيد معه لهوه وعبثه وبطانته .. !!

ويزيد ، قبل هذا ، وبعد هذا ، تنقصه كل مقومات الرجل المناسب للمكان المناسب .. فهو مُفلس إفلاساً تاماً من كل ما كان لأبيه من دَهاء ، وشخصية ، وذكاء ، ومقدرة .. !

ففيم استخلافه .. ؟ وبأى رُشد وأى ضمير، يُفرض واحد هذا شأنه على الإسلام وعلى المسلمين . ؟ !

ثم أين عهده مع « الحسن » على أن يترك الأمر بعده شورى . حيث يختار الناس من يرتضون .. ؟ !

لكنّ معاوية فعلَها ـــ غفر الله لمعاوية ..

وفى العام الستين للهجرة مات ، لينتقل الأمر من بعده إلى يزيد ....

وبدأ يزيد عهده بإنفاذ الوصية التى تركها له أبوه قُبيل وفاته :

« إنى لا أخاف عليك سوى أربعة رجال :

الحسين بن على .. وعبد الله بن عمر .. وعبد الرحمن بن أبى بكر .. وعبد الله بن الزبير ..

فأما الحسين بن على ؛ فإن أهل العراق لن يتركوه حتى يخرجوه إليهم ؛ فإن ، فعل فظفرت به فاصفح عنه ..

وأما عبد الله بن عمر ، فرجلٌ قد وقذته العبادة ، ولا يريد الخلافة إلا أن تأتيه عفواً ..

وأما عبد الرحمن بن أبى بكر ، فليس له عند الناس ما يجعله يطمح إلى طلبها ، أو يُحاول التماسها إلا أن تأتيه عفواً ..

وأما الذى سيجْثُم لك جُثوم الأسد ، و يُراوغك روغان الثعلب ، حتى إذا أمكنته فرصة وثبَ عليك ؛ فذلك هو عبد الله بن الزبير .. فإن فعل وظفِرت به فقطعه إرْباً إرْباً ، إلا أن يلتمس منك صُلحاً .. فإن فعل فاقبل منه ، واحقِن دماء قومك بجهدك .. وكُفّ عاديتهم بنوالك .. وتغمّدهم بحلمك .. » .

تُرى ، هل كان معاوية يعرف لأبنه هذا جُهداً ، أو نوالاً ، أو حلْماً يُعالج به الأمور .. ؟؟

على أية حال ، فقد جلس يزيد حيث كان يجلس أبوه من قبل ، وسبق الناس إليه يبايعونه مَليكاً ، بعد أن بايعوه من قبل أميراً ..

واهتزَّ كيانُه فزعاً ، تحت ضغط مشاعره الوجلة لوجود الحسين وابن الزبير ابن ابى بكر وابن عمر بالمدينة ، فكَتب على الفور إلى عامله هناك — الوليد ابن عتبة بن سفيان — بهذا الأمر الحاسم :

« .. أما بعد ، فخُذْ حسيْناً ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر بالبيعة أخذاً شديداً ، ليس فيه رخصة حتى يبايعوا ، والسلام » ..

واستنجد الوليد بمشورة قريبة مروان . وكان مروان والياً على المدينة من قبل ، ثم سَخِط قرار معاوية أخذه البيعة ليزيد ، إذ كان يرى نفسه بحكم سنه ومشيَخته فى بنى أمية أحق بها وأولى ..

ولخّص مروان مشورته للوليد فى هذه الكلمات السّود : « .. أما ابن عمرِ ، وابن أبى بكر ، فلا أراهما يريان القتال .. ولكن عليك بالحسين وعبد الله ابن الزبير ؛ إليهما فإن بايعا ، وإلا فاضرب أعناقهما قبل أن يذيع فى الناس نبأ موت معاوية ؛ فَيثِب كل واحد منهما فى ناحية » .. !!

هكذا ، وبكل يُسر واستهتار يُطوِّح مروان بالرقاب !!

اضربْ أعناقهما .. !!

هذا هو نهج الذين اغتصبوا حق المسلمين فى خلافتهم ، وأرادوا أن يجعلوه وقْفاً على أنفسهم وعلى ذراريهم حتى آخر طفل فيهم وآخر رضيع .. !!

ومروان هذا ، الذى يُشير بقطع الرقاب ، هو الذى سينتقل إليه الملك بعد أربعة أعوام من مُلك يزيد .. وهو الذى سيظل الملك فى عقبه حتى يجئ العباسيون بعد عشرات من السنين ، لا نرى فيها وفى كل أولئك

الحاكمين من هو للقداسَة أهل سوى « عمربن عبدالعزيز» رضى الله عنه وأرضاه .. هذا الخليفة العادل الذى سيَضجّ من مظالم قومه وعائلته ، و يبرأ إلى الله منها .. !!

ونعود إلى الوليدبن عقبة وَالى المدينة ، فنراه يرسل فى طلب « الحسين ، وابن الزبير»..

وفى طريقهما إليه يسأل ابنُ الزبيرالحسين :

ـــ تُرى فى أىِّ أمر بعث إلينا هذه الساعة .. ؟

ويجيبه الحسين :

ـــ أحسب أن معاوية قد مات .. وقد بَعث إلينا للبيعة .. !

و يعودان أدراجهما دون أن يواصلا السيرإلى الوليد .

فأما « عبدالله بن الزبير» فقد انتظرمجئ الليل ، ثم حمل متاعه ، وركب راحلته ، وسافر إلى مكة ..

وأما الحسين ، فيأخذ نفراً من أتباعه ، و يسيربهم إلى الوليد فى دار الإمارة ، و يأمرهم أن ينتظروه خارج الدار، فإن سمعوا حواراً غاضباً بينه و بين الأمير اقتحموا الدار ليكونوا بجانب الحسين إذا أريد به السُّوء .

بيد أن الوليد فى هذا الموقف كان خيراً من ألِف من طراز مروان ..

ذلك أنه لم يكد يُنهى إلى « الحسين » نبأ وفاة معاوية ، داعياً إياه إلى بيعة يزيد ، حتى قال له « الحسين » رضى الله عنه :

« إن مثلى لا يعطى بيعته سراً ، فاجمع الناس ليبايعوا ، وأبايع على ملأ » ..

ولانستبعد أن يكون الوليد ، قد أدرك مافى كلمات الحسين من مناوَرة شريفة ، آثر أن يتغافل عنها ، حتى لايُلوِّث يديه بجريمة العدوان الذى أشار به مروان .

لذلك نراه ، حين أصبح الصباح فى اليوم التالى ، وجاءه الخبر بأن الحسين رحل إلى مكة .. ولامَه مروان على نبذ مشورته .. نراه يقول يومها لمروان :

« أتشير عليَّ بقتل الحسين بن فاطمة ، بنت رسول الله .. ؟؟
والله ، إن الذى يُحاسَب بدم الحسين يوم القيامة لَخفيفُ الميزان عند الله » ... !!

* * *

رحل الحسين إلى مكة .. ذلك البلد الحرام الذى يلتمس الناس فيه الأمْن والملاذ .

واصطحب معه أختيه « السيدة زينب ، والسيدة أم كلثوم » وإخوته « أبو بكر ، والعباس ، وجعفر » وأولاد أخيه « الحسن » وجميع مَن كان بالمدينة من أهل بيته ، عدا أخاه « محمد بن الحنفية » الذى آثر البقاء بالمدينة .

وكان قد سبقه إلى مكة كما ذكرنا ، عبد الله بن الزبير .
كذلك كان قد إليها حَبْرُ الأمّة « عبد الله بن عباس » .

وفى مكة ، استقر الحسين وآله .. وأقبل أهلها بل وأقبلت الوفود من خارجها على ابن بنت رسول الله تلتمس منه الحكمة والهدى والنور .

ولقد كانت مكه آنئذ أنْسب مكان يُدبر فيه « الحسين » خواطره وتفْكيره حول القضية الجليلة التى تشغله ، والوضع الخطير الذى حاق بالمسلمين ..

* فهنا .. وفى قديم الزمان ، كان هاشم ، وعبدشمس ، أخوان وُلدا لعبد مَناف .. ومن هاشم ، جاء النبى ، وعَلىّ ، وبنو هاشم أجمعون ..

ومن عبدشمس ، جاء أمية ، وأبو سفيان ، ومعاوية ، ويزيد ، وبنو أميّة كافّة ..

* وهنا .. كان هاشم يملأ مكة والجزيرة براً ومجداً وكرماً ، فهو الذى يطعم الحجيج ، ويحمى الذمار، ويرسل قوافله إلى الشام وإلى اليمن لتعود موقَّرة بالخير والرزق للناس ، حتى قال فيه شعراء قريش يومئذ :

عَمرو الذى هشَم الثريد لقومه قومٍ بمكةَ مسنتين عِجافِ
سُنَّتْ إليه الرحلتان كلاهما سفرُ الشتاءِ ورحلةُ الأصيافِ

بينما عبدشمس مُزمعُ أسفارٍ دائماً لا يحمل تِجاه قومه ما يجب من تَبعات ..

* وهنا .. شهدت مكة ذات يوم أروعَ مُنجزاتها الأخلاقية والسياسية يوم أقرّت كل قبائلها « حِلْف الفضول » .. ذلك الحِلف كان مضمونه وفحواه أن تُردَّ الحقوق إلى أهلها ، وألاَّ ينتصر ظالم على مظلوم ، وأن يضحّى المشتركون فيه بحياتهم إذا تعرضت العدالة لخطر .. !!!

ومن عجب أن كل قبائل قريش وبُطونها ، اشتركت يومئذ فى هذا الحلف ماعدا بنوعبدنوفل .. وبنوعبدشمس آباء الأمويين .. !!

* وهنا يستطيع « الحسين » أن يمدّ بصره فيرى الدار التى عاش فيها وبزَغ منها جَدّه العظيم « محمد رسول الله » هاتفاً بكلمة الله ، حاملاً مِعْوله الرشيد فى وجه وثنيَّة الحجَر .. ووثنية البشَر .. !!!

ويستطيع أن يمُدَّ بصره ؛ فيرى « زمزم » التى حفرها جده « المطَّلب » امتثالاً لرؤيا صادقة ، والتى كانت لقريش حياة ورِيّاً ، وصارت للمسلمين تُراثاً ومَنْسكاً ..

ويستطيع أن يمد بصره فيرى الدّور التى خرج منها مَهديُّون أبرار ، آمنوا بالرسول وآزروه فى دعوته ووحدته ، وفى مقدمتها دار أبى بكر .. ثم يرى الدّور التى خرج منها أولئك الذين سَخِروا من دعوته ، واضطهدوا أهله وصحبه ، وفى مقدمتها دار أبى سفيان .. !

* وهـنا .. يستطيع أن يرى و يسمع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جده « أبى طالب » وهو يقول للرسول :

« يـا ابـن أخـى ، ادْعُ إلى سبـيـل ربـك مـا شـئـت ، فـو الله لا أسْلِمُكَ إليهم أبداً .. » .

ثم يـقـف إلى جـواره كـالـطّـوْد مـضحّيا براحته ، وأمْنه ومكانته بين قومه ..

كما يـسـمـع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جدّته « خديجة » وهى تقول للرسول :

« والله لا يُخز يكَ الله أبداً » ..

ثم تنهـض إلى جـواره فى وجـه قـر يـش واضـعةً كل ثرواتها وجاهها فى خدمة الدين الحق الجديد ..

* وهـنـا .. يـسـمـع الحـسين بـكل سمعه وقلبه كلمات جده الرسول الكريم التى تركها للتار يخ الإنسانى بأسره قدوة ونبراساً وهُدًى :

« .. والله ، لـو وضـعـوا الـشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أتـرك هـذا الأمر ، ماتركتُه حتى يقضيه الله ، أو أهلك دونه » .. !!

أجـل .. هـنـا سيسمع الحسين صَداها .. و يتراءى له المشهد ، فيُفجِّر فى نفسه بأسها ، ونِضالها ، وتُقاها .. !!

ولـسوف يسأل نفسه : ماهذا الأمر الذى رفض جدّه النبى أن يتخلّى عنه ولو أوتىَ الشمس والقمر وما بينهما .. ؟؟

ويجيبه قلبه : إنه كلمة الله ودينه .

و يـعـود يـسـأل نـفـسـه : وأيـن ديـن الله الـيـوم ، ومَـن الـذى يحـمل لواءهَ .. ؟؟

ويجيبه الواقع : إن دين الله اليوم فى مِحنة ، إنه يتحوّل إلى ملك عَضوض .. وإن الذى يحمل لواءه اليوم طاغية عربيد اسمه ، يزيد .. !!

يعود يسأل نفسه : وما المصير .. ؟؟

و يُجيبه وَعْيه ورُشده : المصير عودة الجاهلية وسيادة الوثنية ، ودُنوّ ساعة هذه الأمة حيث يرجع كل ما بنَتْ وشادت تراباً فى تراب .. !!

ألم يقل جدّك الرسول عليه السلام :

« إذا وُسِّد الأمر لغير أهله ، فانتظر الساعة » .

فها هو ذا قد وُسِّد لغير أهله .. بل لِشر أهله !! ..

و يعود سائلاً نفسه : وما واجبى الآن ؟ ..

ويجيبه ضميره : المقاومة ، الآن ، وأبداً .. حتى يفوز الحق ، أو تهلِكَ دونه ، .. !!

* * *

على هذا النحو، لابد أن يكون « الحسين » قد أدار خواطره وتفكيره ..

وفى رأينا أن كل حوافز الثورة على هذا الضلال كانت كامنة فى وعيه ووجدانه ، وكانت وليدة إدراكه السديد لحق الدين عليه واستعداده للتضحية فى سبيله .

وليست نتيجةً لموقف أهل الكوفة الذين أرسلوا إليه كُتبهم ووفودهم يدعونه إليها ليبايعوه ، وليسيروا تحت لوائه إلى مقاومة يزيد .

أجل .. ما كان « الحسين » ليدَع دين الله ودنيا الناس ألعوبة فى يد يزيد ..

بل كان سيبشر بالمقاومة ، ويخلُق ظروفها المواتية ، ثم يضرب ضربته العادلة .

وسـواء دعـاه أهل الكوفة أم لم يدعوه ؛ فلقد كان يهتدى إلى مسئولياته بنور إيمانه و بصوت ضميره .. وليس بتحر يض قوة خارجية .

ولقـد عـرفـنـا رأيه الـقـديم فى صـلـح أخـيـه مع مـعاو ية .. إذ كان يعارض هذا الصلح ، معلناً أن آل أبى سفيان لا عهد لهم ولا أمان .

فـإذا كـان هـذا رأيـه والخليفة بالأمس معاو ية ، فكيف يكون إذن ، والمستخلَفُ اليوم يز يد .. ؟ !

ثم إن خـروجـه مـن الـمـديـنـة إلى مكة ، ورفْضَه البيعة ليز يد يُشكلان إعلاناً لمبدأ المقاومة .

فـهو يعلم أن يز يد لن يتركه حتى يبايع .. وهو لن يبايع أبداً .. وإذن ستكون المجابهة بينهما أمراً محتوماً ..

ثم إن للـحـسين طـبـيـعـة جيَّـاشـة ثـائـرة ، يـر بطها بالحق ولاءٌ وثيق وعـجـيـب . وتستمد من فضائل الدين العالية ، ومن تراث حسَبِه العر يق زاداً لا يفنى من الصمود والمثابرة . !!

ولـن يجـد فى كيانه ذرَّة تصبر على رؤ ية يز يدبن معاو ية يجلس حيث جلس من قبل ــ أبو بكرــ وعمرــ وعثمان ، وعلى ــ . !!

إن ذلك يَعنى ضَياعَ مقدّسات عز يزة وغالية ..

وإذا كـانـت الـطـبول تدق فى دمشق ، معلنة قيام خلافة كاذبة لحفيد أبى سفيان ، .

فلابد أن يجد الإسلام من يدفع عنه الكارثة ..

ولابد أن يجد المسلمون من يدرَأ عنهم الطوفان .. !!

الفصل الخامس

البطل يتقدم

تلك هى القضية تماما ..

وهذه حقيقتها التى تجلّت أمام الحسين كفلَق الصباح .. فهى ليست لغزاً ، يحتاج إلى مناقشات تبحث له عن حلول ..

ولا صفقة ، ترتبط اهتماماتها بغُنم أو مَغرم ..

كما أنها ليست طموحا شخصياً ، يحتاج إلى موازنة بين فرص النجاح واحتمالات الإخفاق .

إنها قضية الحق وحده ..

حقّ دين ، وحق أمة ، وحق دولة ، وحق مَصير .. فإما أن ينتصر هذا الحق ، أو فلْيمُت الأبرار دونه ..

ومَن لقيادة الأبرار فى هذا المجال ، كأبى عبد الله الحسين . خير ابن لخير آباء .. وأكرم وارث لبيت التضحية والبذل والفداء ... ؟ !

إن ملايين المسلمين فى كل العصور والأزمان ، يصلون عليه فى صلواتهم آناء الليل وأطراف النهار .

أليس كل مسلم كان أو سيكون ، يختم صلاته قائلاً :

« التحيّات المباركات الصلوات الطيبات لله ..
السلام عليك أيها النبى ، ورحمة الله و بركاته .
السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ..

أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ..
اللهم صَل علىّ محمد ، وعلى آل محمد » ..

وأليس « الحسين » من أولئك الآل .. ؟

أليسَ هو درَّتهم الفريدة والمجيدة .. ؟

إذن ، فإن لهؤلاء الذين يُصلّون عليه عَبْر الزمان والأجيال حقاً عظيماً سيقتضيه تضحيات عظيمة . !!

ومتى تكون التضحية ، إذا لم تكن اليوم ، ودين المسلمين يتحوّل إلى « مزرعة أموية » .. وأمجادهم العظيمة يستولى عليها مخلوق عابث .. ومصايرهم الكبرى تُمسِك بها أيدى وُصوليين جُبناة ، وجلاّدين طغاة .. ؟ !

هكذا لم يكن للحسين بد من أن يقاوِم ، حتى لولم يدعه من العراق داعٍ ، ولم يأته من الكوفة كتاب ... كل ماصَنعته وفود الكوفة وكتُبها إليه . أنها عجّلتْ خروجه .

وهنا ، لابد أن ننفى عن تفكيرنا وهما ردّده كثيرون ، هو أن « الحسين » رضى الله عنه ذهب ضحية خدعه لم يحسن تدبُّرها .. أو ضحية أنصار لم يُحسن تقدير إخلاصهم وثباتهم .. !

كلا ، إن « الحسين » إنما ذهب شهيد إيمان قرّر مختاراً ومشتاقاً أن يكون شهيدَه وقُربانه .. !!

والآن ونحن نواجه الوقائع والأحداث ، سنرى كم كان فى تصميمه وبطولته حكيماً ، وكيف خطّط لواجبه ومسئولياته فى رُشد ، ونُهىً ، وسَداد ..

* * *

فعندما جاءته كتُب أهل الكوفة تدعوه إلى القدوم عليهم لمبايعته ، ولدفع العار الذى لحق الأمة باستخلاف يزيد ، لم يُسارع بامتطاء

راحلته .. بل رأى أن يبعث إليهم مبعوثاً فطِناً وأميناً يرى الموقف هناك على طبيعته ، ثم يوافيه بالأنباء ..

واختار للمهمة ابن عمه « مسلم بن عقيل بن أبى طالب » وحمّله إلى الكوفة هذه الرسالة :

« بسم الله الرحمن الرحيم
من الحسين بن على ، إلى مَن يبلُغه كتابى هذا ، من أوليائه وشيعته بالكوفة .
سلام الله عليكم ..
أما بعد ، فقد أتتنى كتُبكم ، وفهمت ماذكرتم من محبتكم ، ورغبتكم فى قدومى إليكم .
وإنى باعثٌ إليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهلى « مسلم بن عقيل » ليعلم لى كُنْهَ أمركم ، و يكتب إلىَّ بما يتبين من جمعكم .. فإن يكُ أمركُم على ماجاءتنى به كتبكم وأخبرتنى رسُلُكم . أسرعت القدوم إليكم إن شاء الله تعالى » ..

ومضى « مسلم » إلى الكوفة .. ولم يكد يستقربها حتى سارع الناس إليه يبايعونه على السير تحت لواء « الحسين » مهما تكن التضحيات .

وسارع جواسيس يزيد إلى « النعمان بن بشير » والى الكوفة وحاكمها يطلعونه على مايدور ويجرى .

وكان « النعمان » رضى الله عنه صحابياً جليلا ، فردَّ جواسيس يزيد خائبين ، إذ قال لهم :

« إنى لا أقاتل إلا مَن يقاتلنى .. ولا أثِبُ إلا على مَن يثِبُ علَىَّ ، ولا آخذ بالظِّنَّة أحداً » ..

وأجابه أحدهم قائلا : (هذا رأى المستضعفين) .. فزجره النعمان قائلا :

« لأنْ أكون من المستضعفين فى طاعة الله .. خير من أن أكون من الجبّارين فى معصيته » .. !!

وانصرفوا من حضرة النعمان يائسين ، ليكتبوا إلى سيدهم يزيد ، يخبرونه أن « مسلم بن عقيل » استولى على أفئدة الناس ، وأن « النعمان بن بشير » لا يُحرك ساكناً .

وفى دمشق اجتمع يزيد مع مستشاريه .. وكان أبرزهم ذلك الذى يُسمَّى « سرجون » ..

تُرى بم يشير مَجوسى كسرجون .. ؟ ؟

أشار بعزل « النعمان بن بشير » وتولية عبدالله بن زياد والى البصرة ، والياً على الكوفة أيضاً .

ولم يكن عجباً أن يقع اختيار سرجون على ابن زياد بالذات ، ذلك أن « مُرجانة » أمَّ ابن زياد ، كانت هى الأخرى جارية مَجوسيَّة .. ؟ ! !

وابن زياد هذا ، من أحط وأشقى من حملت الأرض على ظهرها .. لا يفوق ولعه بالقتل وسفك الدماء ، سوى ولعه بالقتل وسفك الدماء .

* * *

فى نفس الوقت ، كان الحسين عليه السلام ، قد أرسل مولاه « سليمان » إلى البصرة حاملاً هذه الرسالة إلى نفر من زعُمائها :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن على .. إلى مالك بن مسمع ، والأحنف بن قيس ، ومسعود بن عمرو ، وقيس بن الهيثم ،

والمنذربن الجارود ..

سلام الله عليكم ..

أما بعد ؛ فإني أدعوكم إلى إحياء معالم الحق ، وإماتة البدعة والباطل ؛ فإن تجيبوا تهتدوا سُبُل الرشاد » ..

إن رسالة « الحسين » إلى أهل البصرة ، تر ينا كيف كان يعرف مسئوليته ويمضي معها .. فأهل البصرة لم يكتبوا إليه ولم يدعوه إلى بلدهم كما فعل أهل الكوفة .. ومع هذا فهويكتب إليهم و يُعدّهم للمجابهة المحتومة ــ ذلك أنه قرر أن ينهض بتبعات دينه وأمته ، كان قراره هذا آتياً من أعماق روحه وضميره ، وليس من حركة أهل الكوفة ودعوتهم إياه ..

* * *

لم يكد مبعوثه « سليمان » يصل البصرة ، و يسلّم رسالته لزعمائها ، حتى سارع أحدهم وهو المنذربن الجارود إلى ابن ز ياد حيث أفْشى له سِرّها وأطلعه عليها .. وألقى ابن ز ياد القبض على « رسول الحسين » وفي وحشية تليق به ، قام بقتله وصلبه .. ثم تهيأ للسفر إلى الكوفة ، ليباشر مهمته المجرمة هناك . ! !

وقبل رحيله ، دعا أهل البصرة إلى اجتماع عام خطبهم فيه فقال :

« يا أهل البصرة .. إن أمير المؤمنين يز يد ! ! قد ولانّي مع البصرة والكوفة ، وإني سائر إليها . وقد خلّفت عليكم أخي عثمان بن ز ياد .. فإياكم والخلاف والإرجاف .. فو الله لئن بلغني عن أحد أنه خالف أو أرجف ، فلأقتلنه و وليه ، ولآخذن الأدنى بالأقصى .. والبرىء بالمذنب ، حتى تستقيموا ــ أنا ابن ز ياد .. وقد أعْذرَ من أنذر » .. ! !

هكذا تحدث إلى الناس بالبصرة حديث الطاغية .. على أن التجربة تعلمنا أنه ليس هناك أجبن من الطغاة .. وأن مايتظاهرون به من بأس شرس وشجاعة زائفة ، إنما يستمدونها مما يمسكون بأيديهم من سلطان .. ! !

فابن زياد هكذا ، بكل طغيانه ، وقسوته ، وإجرامه ، يخاف أن يدخل الكوفة سافِراً منظوراً ، فيدخلها متنكراً ، ومُخفياً سِحنته ووجهه وراء لثام وقناع .. !

ومن المفارقات الباسمة ، أن أهل الكوفة الذين كانوا ينتظرون مقدم « الحسين » على شوق ، لم يكادوا يرون قافلة ابن زياد ، حتى حَسبوها موكب « الحسين » فراحوا يفسحون له الطريق هاتفين :

« مَرحباً بابن رسول الله .. قَدِمْتَ خير مقدم » .. !!

ولئن كانت هذه الحفاوة بالحسين قد ملأت نفس ابن زياد مرارة وحقداً ، إلا أنها ألقتْ على قلبه الجبان كثيراً من الأمن ، إذ اطمأن أنهم لم يعرفوه ، وبالتالى لن يصلوا إليه بسوءٍ .

وحين بلغ دار الإمارة ، واحتمى بشرطتها وحرسها ، راح ينصب شباكه ليقتنص رسول الحسين وابن عمه « مسلم بن عقيل » الذى كان يمارس نشاطه الجليل فى هِمة موفَّقة وناجحة .

* * *

كان عزل « النعمان بن بشير » عن الكوفة ، وتولية ابن زياد مكانه نذيراً رهيباً لمسلم بن عقيل .. فبعد أن كان يجتمع بالناس فى غير تحرّج ولا تخوف ، راح يُغيِّر مقرهُ ، فينتقل إلى دار أخرى ، ويحيط نشاطه بكتمان كبير .

كانت الدار الجديدة التى انتقل إليها هى دار « هانئ بن عروة » من صَفوة أهل الكوفة وأشرافهم .

وكان ابن زياد قد اصطحب معه من البصرة بعض صفْوتها وزعمائها ، ومن بينهم « شريك بن الأعور » .. وكان « شريك » شيعياً يكتُم إيمانه وولاءه ، كذلك كان صديقاً لـ « هانئ بن عروة » الذى يتخفَّى « مسلم بن عقيل » فى داره ...

ورغب « هانئ » إلى صديقه « شريك » أن ينزل عليه ضيفاً فى داره فقبل دعوته ، حيث التقى فيها بمسلم بن عقيل فبارك جهوده وجهاده وحثَّه على المثابرة .

وهنا نلتقى بصورة من عظَمة آل البيت وأخلاقهم وشرفهم فى النضال والقتال .

ذلك أن « شريك بن الأعور » مرض ، وخف ابن زياد لعيادته حيث هو فى دار هانئ ..

ورآها « شريك » نفسُه فرصة سانحة للإجهاز عليه والتخلص منه . فاتفق مع « مسلم بن عقيل » أن يفاجئ ابن زياد عندما يجئ إليه ، ويضربه بسيفه ضربة تُريح منه البلاد والعباد .

ولكن ابن زياد جاء ، وجلس ، وطالت جلسته ، ثم غادر الدار دون أن يناله سوء ...

وبُعيد انصرافه عاتب « شريك » مُسلماً » وسأله : لماذا لم تُنجز ما اتفقنا عليه وتتقرب إلى الله بقتله .. ؟ فأجابه « مسلم » :

« لقد منعنى من ذلك أمران : أولهما ، كراهية هانئ أن يُقتَل فى داره .. وثانيهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا عن الغِيلة ، وقال : لا يَفْتِك مؤمن » .. ! !

هذا هو الخلق الشريف الذى يُناضل له أهلُ البيت الكرام ! !

أما « مسلم » فقد واصل أخذ البيعة سراً حتى بايعه ثمانية عشر ألفاً .

وأنئذ ، وأمام تلك الأعداد الكثيرة من الأنصار والمبايعين ، أرسل « مسلم » « الإمام الحسين » يبشره بما تم ، ويدعوه للقدوم ..

وأنئذ أيضاً ، كان ابن زياد قد جُن جنونه لإخفاقه فى القبض على « مسلم » وفشل شرطته فى معرفة مكانه ، هنالك لجأ إلى حِيَله الخبيثة ،

فاختار واحداً من مواليه ، واسمه ــ معقل التميمى ــ وأعطاه صرة بها ثلاثة آلاف درهم ، وأمره أن يجوب خلال الكوفة ، مُجرداً من نفسه شخصاً غير شخصه .. زاعماً ومتظاهراً بأنه واحد من شيعةَ « الحسين » يريد أن يأخذ مكانه بين صفوف أنصاره ، ويريد أن يُسهم بما معه من مال فى شراء سلاح لأولئك الأنصار ! !

وبعد طوال تطواف ، وطول تعسُّس ، اهتدى الجاسوس إلى ضالته المنشودة ، فقد تعرفً إلى رجل صالح من أصحاب « مسلم » قاده أخيراً إلى مكان ومقره ..

وأتقن الخبيث دوره حتى خُدِعوا به جميعاً ، وأصبح أثيراً لديهم ، يزور « مسلما » كل يوم حيث يقضى معه النهار كله .. ثم يقضى الليل بأجمعه مع ابن زياد ، ناقلاً إليه الأخبار والأسرار .. ! !

وحين تمكَّن ابن زياد من قَنصه الثمين ، أرسل فى طلب « هانئ » وفاجأه قائلا : « إيه يا هانئ بن عروة ، ما هذه الأمور التى تُحاك فى دارك لأمير المؤمنين (! !) ، جئت بمسلم بن عقيل وأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال ، وظننت أن ذلك يخفى علىّ » ...

كانت المفاجأة أليمة الوقع على هانئ .. فرأى أن يُخادع ابن زياد بالإنكار ريثما يستعد لمجابهته التى أصبحت فوريَّتُها محتومة ..

لكن ابن زياد أذهله بمفاجأته الثانية ، فدعا جاسوسه ــ معقلا ــ الذى انتصب أمام « هانئ » كليل الشتاء طويلا باردا وسأله بن زياد أتعرف هذا ؟ وسقط فى يدهانئ وأدرك كل شئ .. وسرعان ما سيطرت رجولته على الموقف فى لحظة ، وصاح بابن زياد :

« أجل أعرفه ..
وإن « مسلماً » فى دارى ، وهو ضيفى ،
ولن أسْلمه أبداً » ! !

وجُن جنون الطاغية ، فنادى جلاَّديه وأمرهم أن ينزلوا به كل عذاب دون القتل حتى لا يستريح بالموت ! ! .

وتناوشه المجرمون ، يكسرون أنفه، ويمزقون لحم وجهه ، ويهشمون عظامه ، وهو صابر مُحتسب .. ! !

ولما شَفى ابن زياد نفسه المظلمة بتعذيبه ، أمرهم أن يخرجوا به إلى السوق و يضربوا عنقه ..

وطار خبر مصرعه واستشهاده إلى « مسلم بن عقيل » فجمع رجاله وأنصاره ، وسار بهم إلى قصر الإمارة حيث ضربوا حوله حصاراً رهيباً .

لماذا لم يضرب « مسلم » ضربته من فوره .. ؟

لماذا لم يقتحم القصر على ابن زياد ، وقد كان معه ساعتئذ من الأنصار المسلمين أضعافُ أضعاف الحرس الذين يحرسون الطاغية ؟ ؟

لماذا لم يستغل تلك الثورة العارمة التى كانت تشتعل فى أنفس الناس نِقمة وغضباً لمقتل « هانئ بن عروة » .. ؟ ؟

هنا ، ينجو ابن زياد مرة أخرى من قتل مُحقَّق بسبب أناة « مسلم » وفضائله ! !

فـ« مسلم » يعلم أن « الإمام الحسين » إنما أرسله ليأخذ له البيعة ولم يأذن له بقتال ..

وهو حريص على أن يلتزم الحدود التى رسمها له ابن عمه وقائده .. !

وهكذا قضى اليوم كله مكتفياً بالحصار الذى ضربه وأحكمه .

بينما قضى ابن زياد ومن معه فى القصر يومهم فى نسْج الشباك وإعمال الحيلة ، فأوعز إلى بعض زعماء الكوفة وأشرافها الممالئين ليزيد ، والذين كانوا معه داخل القصر ، على أن يُطِلُّوا على المحاصرين ساعة الغروب ، ويخبروهم أن جيش الشام فى طريقه إلى الكوفة سيصلها غداً أو بعد غد .. وسيحيل أحياءاها قتلى ، ودورها تُراباً .. ففعلوا ما أمرهم به ابن زياد ،

وأتقنوا عملية بثّ الرعب فى القلوب ، ثم نصحوا الثوار أن ينصرفوا على أن تعالج الأمور فيما بعد ، بالتفاهم والمفاوضة ..

وانصرف الثوار - بعضهم صرفه الفزع .. و بعضهم صرفه احتمال الوصول إلى تفاهم يحقن الدماء .. !!

وفى الصباح انبثّت شرطة ابن زياد فى طول الكوفة وعرضها باحثين عن « مسلم بن عقيل » حتى عثروا عليه فى إحدى الدور، فقاومهم وحده بسيفه عزمه ، ولكن دون جدوى ..

وحُمِل إلى الطاغية ، حيث وقف أمامه صامتاً ورافضاً أن يُلقى عليه السلام .

وسأله ابن زياد : أتُراك ترجو الحياة والبقاء .. ؟؟

فأجابه « مسلم » :

« إذا كنت تريد قتلى ، فدعنى أوصِ إلى بعض الذين هنا من قومى » ..

أجل .. لم تشغله حياته .. إنما تشغله حياة ابن عمه « الحسين » الذى أرسل إليه من قبل يدعوه للقدوم وهو الآن فى طريقه إلى الكوفة !!

كما تشغله ديون اقترضها منذ قدومه ، حيث أسهم بها فى شراء العتاد والسلاح .. !!

وأجابه ابن زياد إلى طلبه ، فأمر - عمر بن سعد - أن يستمع لوصيته .

وأوصاه « مسلم » فقال :

« إن علىّ بالكوفة ديناً اقترضته ، فإذا قتلت فبع سيفى ودرعى ، وخذ من غلّتى بالمدينة حتى تقضيه عنى .. وإنى قد أرسلت إلى « الحسين » أخبره أن الناس ينتظرونه ، وأدعوه

للقدوم ، ولا أراه إلا مُقبلاً . فابعث إليه من يردّه ويخبره أن أهل الكوفة لاعهد لهم » ..

ثم أسلمه الطاغية لجلاّديه ، فضربوا عنقه .. ثم رموا رأسه الكريم من حالق إلى قارعة الطريق .. وأتْبَعوا الرأس الجسد ..

ثم انصرفوا إلى لهوهم ومرحهم ، فقد كانت الليلة ليلةّ العيد . !

وفى الصباح صلّى « ابن مرجانة » فى المسجد الجامع صلاة عيد الاضحى .. ثم أمر برأس « مسلم بن عقيل » ورأس « هانئ بن عروة » فغُرسا فى أسِنّة الرماح ثم أرسلهما إلى الشام ، هدية لمن يدعوه أمير المؤمنين .. !!

* * *

فى الوقت الذى كان رأس « مسلم وهانئ » يقطعان الفيافى من عراق ابن زياد ، إلى شام يزيد .. كان « الإمام الحسين » يقطع طريقه من مكة إلى الكوفة ، دون أن يعلم بعد ، ما وقع بها من أهوال !! ..

وكان قبل خروجه قد صمد لمعارضةٍ عاتية من بعض أهله وأصحابه الذين خشوا عليه عواقب الخروج .

* فهذا « عبد الله بن عباس » رضى الله عنه ، يُجرى معه حواراً طويلا يتوسل إليه خلاله كى يبقى حيث هو.

يقول له « ابن عباس » :

« يا ابن عم .. إنه قد أرجَف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبيِّن ما أنت صانع ؟ »

فيجيبه « الحسين » :

« إنى قد أجمعت المسير فى أحد يومىَّ هذين إن شاء الله تعالى » .

و يعود « ابن عباس » ليقول له :

« إن كانوا قد دعَوكْ إليهم بعد أن عزلوا أميرهم ، ونفَوا عدوهم ، ووطّأوا أكْناف بلادهم ، فسِرْ إليهم .. وإن لم يكونوا فعلوا ، فإنهم إذن يدعونك لفِتنة وقتال .. وإن أهل الكوفة لاعهد لهم ، وإنى أخشى عليك الهلاك ..

أقِم بهذا البلد حيث أنت .. وإذا كنت لابد خارجاً ، فاذهب إلى اليمن ، فإن به حصوناً وشِعاباً ، ولأبيك به شيعة » ...

و يزداد « الحسين » تصميماً و يقول :

« يا ابن عم .. إنى لأعلم أنك ناصح مُشفِق ، ولكنى قد عزمت على المسير » ..

وتضيق الأرض بابن عباس ، وتحتدم أعصابه و يقول للحسين :

« لولا أن يُزرِىَ الناس بى و بك ، لشبَّثْت يُدى فى رأسك ، فلا أدعك تذهب ..

ولكن إذا كنت لابد سائراً ، فلا تَسِر بأولادك ونسائك ، فإنى أخشى أن تُقتل وهم ينظرون إليك كما قُتل عثمان » .. !!

* وهذا « عبد الله بن عمر » لا يعلم بسيرته إلا بعد خروجه ، فيمتطى ظهر راحلته ، و يقطع الطريق وراءه وثباً ، حتى يلحق به على بعد ثلاثة أيام من مكة .

و يسأله : أين تريد ؟ !

فيجيبه : الكوفة ، هذه كتُب أهلها و بيعتُهم ، وإنى ذاهب إليهم .

فيقول له ابن عمر :

« إنى محدثّك حديثاً ..

إن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فخيَّره بين الدنيا

والآخرة ، فاختار الآخرة ولم يُرد الدنيا .. وإنك بُضعة من رسول الله .. والله ما يَليها أحد منكم أبداً ، وماصرفها الله عنكم ، إلا للذى هو خير لكم » .

ولكن « الحسين » لا ينقص عزمه ، فيضمه « ابن عمر » إلى صدره و يقبله و يقول وهو يبكى :

« أستودعُك الله مِن قتيل » .. ! !

* كذلك كان « أبو سعيد الخُدرىّ » صاحب رسول الله قد حاول ثنْيَه عن عزمه قبل خروجه من مكة ، وجلس يقول له :

« لقد سمعت أباك يقول وأنا معه بالكوفة : والله لقد مللْتُهم وأبغضتهم ، فما لهم ثباتٌ على أمر .. ولاصبرٌ على السيف .. ومن فاز بهم ، فاز بالسهم الأخيَب » ! ! ..

كل تلك المحاولات الحريصة على سلامته وحياته لم تلن قناه ولم توهن له عزما

ذلك أن القضية التى خرج البطل حاملا لواءها ، لم تكن قضيةً شخصية تتعلق بحق له فى الخلافة .. أو ترجع إلى عداوة شخصية يُضمرها ليزيد .. كما أنها لم تكن قضية طموح يستحوذ على صاحبه و يدفعه إلى المغامرة التى يستوى فيها احتمال الربح والخسران ..

كانت القضية أجلّ ، وأسمى ، وأعظم ..

كانت قضية الإسلام ومصيره ، والمسلمين ومصيرهم ..

وإذا صمَت المسلمون جميعهم تِجاه هذا الباطل الذى أنكره البعض بلسانه ، و ينكره الجميع بقلوبهم ، فمعنى ذلك أن الإسلام قد كفّ عن إنجاب الرجال .. ! !

معناه أن المسلمين قد فقدوا أهلية الانتماء لهذا الدين العظيم .

ومعناه أيضاً ، أن مصير الإسلام والمسلمين معاً ، قد أمسى معلَّقاً بالقوة الباطشة ، فمن غلَب ، ركِب .. ولم يعد للقرآن ، ولا للحقيقة سلطان .. !!

هذه هي القضية في روُع الحسين ..

وبهذا المنطق أصرّ على الخروج ..

ومعنى آخر نبيل ، أفصحَ عنه في حواره مع ابن عباس حين كان يُلح عليه أن يبقى في مكة ، فقال له :

« إني أخاف أن تُستباح بسببي » .. !!

إنه برفضه مبايعة يزيد ، وبتصميمه على مقاومته ، يرى المجابهة أمراً محتوماً ..

ولم يُرد لهذه المجابهة أن تقع في البلد الحرام ، فهو على بينة من سَفالة خصومه .. وهو يعلم أنهم لن يتورّعوا عن هدم المسجد ذاته والكعبة ذاتها إذا اضطرهم القتال لذلك .

ثم إن أهل الكوفة قد دَعَوه ، ووثّقت دعوتهم بكتاب ابن عمه « مسلم ابن عقيل » فقد صار لزاماً عليه وفْق اقتناعه بعدالة قضيته أن يُسارع إلى تلك الجبهة التي أعدّت نفسها لمناصرته والمقاومة معه .

ولكن ، ماذا عساه يصنع ، حين يعلم أن ابن عمه قُتِل .. وأن الذين بايعوه قد لاذوا بالفرار .. ؟

لن يصنع شيئاً سوى المضي مع عزيمته وعزمه .. ذلك أنه لم يخرج ليُحرز نصراً مضموناً .. بل خرج ليؤكّد حق الإسلام في حماية نفسه من الضلال والإفك ، وليُكفِّر في تضحية مجيدة عن خطيئة الصمت التي اقترفها الناس طائعين ، أو مكرهين .. !!!

وليكن بعد ذلك ما يكون !!

إن الـذى يـعـنـيـه من ناحية الجوهر ، هو أن يؤدى ما رآه واجباً مقدساً عليه نحو دينه ونحو الحق .

والـذى يـعنيه من ناحية الشّكل ، ألا تدور المعركة بينه و بين يز يد فى مكة فيكون سبباً فى استباحة حرمتها وقداستها .

« لأن أقْـتَـلَ فى أى مـكـان من الأرض ، أحب إلى من أن أقتَل هنا ، فيُستباح البلد الحرام بسببى » .. ! !

وهـكـذا طاف بالبيت الحرام ، مؤدياً له التحية التى لم يكن يدرى أنها تحية الوداع ! !

ثم تـصـَـدرَّ الـقـافـلـة الـتـى انـتـظمت أهله المباركين من زوجات ، وأخـوات ، وإخـوة ، وأبـنـاء عـمّ ، وأبـنـاء إخـوة .. كما انتظمت نفراً من أنصاره وصَحبه ..

ولقد اصطحب معه من أهله كل هذا الجمع ؛ لأنهم ــ غالباً ــ تشبَّثوا بـالـرحـيـل مـعـه .. ولأنهـم وَفْـق الـتـدبير الـذى كـان مـرسـومـاً ، سـيـقـيـمـون فى الـبـيـوت الـتـى ستعَد لهم فى الكوفة ، قر يبين منه وتحت عينيه ورعايته .. ولأنـه أخـيراً ــ وربما كان هذا أهم دواعى اصطحابهم معه ــ خشِيَ حين يـشـتـبـك مـع يـز يـد فى قـتـال ، أن يـنتقم منه فى شخص أهله هؤلاء من زوجات وإخوة وأخوات ، فيهاجم مكة ، و يستبيحها بسببهم ، الأمر الذى كان « الحسين » يخشاه دائماً و يتوقّاه .. ! !

* * *

ومضى البطل إلى غايته ..

وأخـذت الـنـُّـذرُ تـلـقـاه على طول طر يقه .. ففى أول الطر يق لقيه الفرَزْدَق الشاعر قادماً من الكوفة .

وسأله « الحسين » : « كيف تركت الناس من ورائك » ؟

فـأجـابـه الـفـرزدق : « تـركـتهـم ، قـلـوبهـم مـعـك .. وسـيـوفـهـم مع بنى أمية » .

إنه نذير من رجل له بالأمور فِطنة و بصَر ، لكن البطل العظيم لا يز يد على أن يتلو الآية الكريمة :

(لِلهِ الأمر ُمن قبل ُومِن بعد) .. !!

ويمضى فى طر يقه .. و بعد أيام يلقاه « عبد الله بن مطيع » قادماً هو الآخر من العراق ، فلا يكاد يرى « الحسين » حتى يتعلَّق بثيابه صارخاً وراجياً أن يعود ، قائلاً له :

« أناشِدكُ الله ألا تذهب للكوفة ، فوالله لئن أتيتها لتُقتَلَنّ » .

فما يز يد على أن يتلوا الآية الكريمة :

(قُل لن يُصيبَنا إلا ما كتَبَ الله لنا) .. !!

و يستأنف السير مع قَدَرْه وقَدرَه ..

و بعد مرحلة أخرى من الطر يقَ يلقاه رجل من بنى أسد ، قادم من الكوفة أيضاً ، فيسأله « الإمام » عن أخبارْها .

فيجيبه الرجل : لقد قُتل (مسلم بن عقيل ، وهانئ بن عروة) .. !!

نبأ يهد ّالجبال ..

ولكن ّ، مَن هو بإيمانه أقوى من الجبال ، ماذا تكون ردُود ُفعل هذا النبأ الرهيب لديه .. ؟

أرسل بَصره فى الأفق البعيد ، ثم قال :

« إنـّا لله ، وإنا إليه راجعون . عندَ الله نحْتسب ُأنفُسَنا ولا خيرَ فى العيش بعد هؤلاء » .. !!

إن مصرع « مسلم وهانئ » كان كافياً لصرف « الحسين » عن غايته ، لو أنه كان فى موقفه وخروجه إنما يستمد شجاعته وجسارته من مساندة أهل الكوفة له .. وليس من إيمانه واقتناعه وضميره .

فعنى قتل « مسلم وهانئ » ، أن الجبهة كلها قد انهارت ، وأن أهل الكوفة ــ على أحسن الظنون بهم ــ قد باتوا عاجزين عما كانوا قد جنّدوا أنفسهم له .

وهذا كاف لكى يَلْوى « الحسين » زمام قافلته و يعود .

لكن تصميمه الوثيق يقوده .. وقَدَرَ العظيم كان يناديه .. ! !

سار ــ رضى الله عنه ــ يقطع الصحارى المتلظّية ، مجتازاً فى مشقّة وكَبَد ، أغوارها ونُجودها .. مُعانياً لفْحَها الضّارب كريح السّموم ، حتى بلغ مكاناً يُدعى « بطن الرمّة » ، فحط رحاله ، وضرب خيامه ليستريح ومَن معه ..

ثم كتب لأهل الكوفة كتاباً يخبرهم أنه فى الطريق إليهم ، وأعطى الكتاب واحداً من أصحابه هو: « قيس بن مسهر الصيداوى » وأمره أن يسبقه به إلى الكوفة .

ومضى « قيس » لسبيله .. بيد أنه لم يكد يبلغ القادسيّة حتى لقيته قُواتِ ابن زياد ، فاعتقله وصحبته معها إلى الكوفة .

وهنا نرى مشهداً بطَلا ، لرجل بطل ! !

فقد أمره ابن زياد أن يُشرفَ على الناس من شُرفة قصره ، و يلعن « الحسين » .. و يعلن على الملأ أنه ــ حاشاه ثم حاشاه ــ كذأب وابن كذأب ! !

وتظاهر « قيس » بالطاعة ، وصعد مع الحرس إلى حيث أراد ابن مرجانة ..

ثم ألقى على الجموع التى جمعوها وحشدوها نظرة وابتسامة ثم صاح :

« أيها الناس ..

« إن « الحسين بن على » من خير خلق الله ، فأجيبوه وانصُروه .. وإن الكذأب بن الكذأب ، هو عبيد بن زياد ؛ فالعنوه والعنوا أباه » .. ! !

هل تستطيع كل فصاحة البشر، أن تعلق على هذا الموقف بثناء، أو إطراء، أو تمجيد.. ؟؟!!

كلا ً..

فلنلق نظرة مُزدرية على ابن زياد؛ لنرى ما أنزل به موقف «قيس» العظيم من خزي وإذلال وسُعار..

لقد جُن كالكلب المسعور، وراح يلعن و يرجُم شياطينه لأنهم أمهلوه حياً حتى أكمل عبارته القاصمة.

ثم أمرهم أن يُلقوا به حياً من أعلى سور القصر، فقُذف به، حيث اندقّت عظامه، وغرَبت حياته(١)..!!

لم يعلم «الحسين» بمصير «قيس» بعد..

ولقد استأنف سيره ومسراه حتى انتهى إلى مكان يُدعى — زرود — وهناك أبصر فسطاطاً مضروباً. فسأل عنه فعلم أنه لـ«زهير بن القَين» فأرسل «الحسين» فى طلبه، فتثاقَل أول الأمر، ثم ذهب إلى لِقائه ضَجِراً..

وحين التقيا، أسَرَّ «الحسين» إليه حديثاً، لم يكد الرجل يسمعه حتى تهلّل وجهه، وامتلأ غبطة و بِشرا..!!

ثم سارع فنقل فسطاطه إلى جوار فسطاط «الحسين» وقال لمن كان معه من أهله: «مَن أحبَّ منكم أن يتبعني، وإلاّ فإنه آخر العهد بيننا».

ثم التفت إلى زوجته وقال لها: «أما أنت، فالحقى بأهلك، فإنى لا أحب أن يصيبك بسببى سوء»..

وانصرف أقرباؤه عائدين إلى موطنهم، مصطحبين معهم زوجته..

ترى ماذا قال له «الحسين» حين ناجاه.. ؟!

---

(١) هناك راوية تاريخية أخرى تقول: إن صاحب هذا الموقف، هو «عبد الله بن يقطر» أخو «الحسين» من الرضاعة.

هل وعَده بمنصِب ، أو مَغنم .. ؟ ؟

لو كان ذلك ، ما سرَّح زوجته ، ولا قال للذين كانوا معه مُودِّعاً إياهم : « إنه آخر العهد بيننا » ..

ثم بأيّ مَغنم يَعِده « الحسين » وقد جاءته الأنباء بمقتل رسُله ، وشراسةِ عدوّه .. ؟ ؟

أغلب الظن أنه حدثّه عن قضيته العادلة ، ثم ختم حديثه معه قائلا : تلك هي القضية ، ففيم إبطاؤك عن الجنة .. ؟ ! !

وتابعت القافلة سيرها ، كاسِبَةً هذا النصير الجديد ، ومنتظمة رجالاً آخرين كانوا ينضمون إليها خلال عُبورها بقُراهم وخيامهم عَبْر الطريق الطويل .

و بعد مسيرتهم من جديد ، أبصروا فارساً يُثير النَّقْعَ ، و يطوى الأرض ..

لقد كان رسول ــ عمر بن سعد ــ الذى أوصاه « مسلم بن عقيل » ــ قبل مقتله بأن يرسل للحسين يخبره بما حدث ، و ينصحه بالرجوع ..

لم يبق فى الأمر إذن شك ولا ريب .. ! !

ولم يدر فى خاطر الحسين أدنى تردّد ، بل انتضى عزمه وواصل سيره ..

كل ما هنالك ، أنه أعْفى أولئك الذين تطوَّعوا لنصرته من رجال القبائل التى مرَّ بها خلال سفره ..

لقد انضمُّوا إليه على أمل النصر .. أما الآن فالأمل فى الاستشهاد وحده .. ! !

ومضى فى صحبة أهله ، وخاصّته ، والنصير الجديد والعظيم « زهير بن القين » ..

* * *

كان ابن زياد، قد فرض حول الكوفة حصاراً مُحكماً، فلا يخرج من أهلها أحد، مَخافة أن ينضموا لموكب البطل القادم إلى الكوفة.

ولم يأذن لأحد من أهلها بالخروج إلا إذا كان ذاهباً للحج، شريطة ألا يكون يحب «الحسين» أو التشيُّع له .. !!

وفى نفس الوقت، أطلق من وراء مَشارفها وحدودها البعيدة طلائعه وسراياه، آمراً إياها أن تتربّص بقافلة «الإمام الحسين». فإذا التقَتْ بها إحداها احتجزتها حيث هى، ثم أرسلت بالخبر لابن زياد.

وعند إحدى القرى الرابضة على حدود العراق، التقى ركب «الإمام» بإحدى تلك الطلائع.

كانت تضم ألف فارس، تحت إمرة «الحر بن يزيد التميمى».

ولم يكن «الحسين» يراهم قادمين نحوه، يتصببون عرقاً من وقدة الحر وقد تيبَّسَتْ شفاههم من الظمأ، حتى أمر فتيانه أن يستقبلوهم بالماء، فشربوا حتى رَوَوْا، ثم جلسوا فى ظلال خيولهم .. وأذَّنَ مؤذن لصلاة الظهر، فسأل «الحسين» الحر بن يزيد: (أتصلى بأصحابك وأصلى بأصحابى) .. ؟

وأجابه الحر قائلا: «بل نصلى جميعاً بصلاتك» ..

ومضى الوقت بعد الصلاة فى حديث وتحاور .. ثم صلوا العصر حين جاء موعده. واستأنفوا بعد الصلاة الحوار قال «الحسين» لهم:

«إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم، وقدِمَت علىَّ رُسُلكم. فإن أعطيتمونى ما أطمئن إليه من عهد وميثاق دخلت معكم مِصركم، وإن تكن الأخرى انصرفت عنكم».

ولكن ـــ الحر بن يزيد ـــ أنبأ «الحسين» رضى الله عنه أنه لا يدرى من الأمر شيئا، وأنه كلف من أمير الكوفة والبصرة ـــ عبيد الله بن زياد ـــ بمهمّة محددة، هى إنتظار ركب «الحسين» حين يجئ، ثم قيادته إلى ابن زياد بالكوفة ..

ابنُ زياد بالكوفة .. ؟؟!!

يالَهوان الدنيا حين يُمسك بمقاليدها السِّفْلة ، وتَهيضُ فيها أقدارُ الكرام .. !!

قال الحسين : « الموت أدنى إليك مما تريد » .. !! ثم أمر أصحابه ، فحملوا متاعهم ، وركبوا رواحلهم ، ثم تقدمهم فى المسير منصرفاً عن الكوفة ، مغيِّرا اتجاهه ..

لكن « الحر بن يزيد » أمر فرسانه فقطعوا عليهم الطريق .

وصاح به الحسين : ماذا تريد .. ؟

قال الحر : أن تصحبنى إلى ابن زياد

قال الحسين : إذن والله لا أتبعُك ..

وأجابه الحرّ : إذن والله لا أدعُك ..

وصاح الحسين : إنها الحرب إذن .. !!

وهنا لانتْ عريكةُ الحرّ بن يزيد فقال « إنى والله لا أريد قتالك ولم أومر به ، وإنى لأرجو أن يرزقنى الله فيك العافية ، ولا ابتلى بشئ من أمرك . ولقد أمِرت إن أنا لقيتُك ألا أفارقك حتى أخبر الأمير ابن زياد ، فإن رأيت فاتَّخذ طريقاً لاتُدخِلك الكوفة ولاتردّك عنها حتى يأتينا رأى الأمير » .

ومضى ركب « الإمام الحسين » يضرب فى تلك الرقعة من الأرض ، يتيامَن ، مرة ، و يتياسَر أخرى . وفرسان ابن زياد بقيادة الحرّ يذودون الركب عن البادية كلما همَّ أن يُدلِف إليها و يدفعونه تجاه الكوفة فى رفق ..

ولم يكد الرَّكْب يبلغ « نينَوى » تلك القرية التى قيل إنها كانت موطن النبى « يونس » عليه السلام ، حتى تراءى لهم من النَّقع المثار ، راكب يغذّ السير و يطوى الرمال .. ولبثوا مكانهم ينتظرون ، فإذا هو

رسول ابن زياد للحر ابن يزيد يحمل إليه كتاباً يقول فيه : « .. أما بعد ، فشدد على « الحسين » فى المكان الذى يوافيك عنده كتابى .. ولا تُنزِله إلا بالعراء ، فى غير حِصن وعلى غير ماء .. وقد أمرتُ رسولى ألا يُفارقك حتى تأتينى بإنفاذ أمرى ، والسلام » .. !!

وتلا ــ الحر ــ الكتاب ، ثم ناله « الحسين » فتلاه .. وأراد الحسين أن يستأنف سيره متجهاً صوب مَسيل ماء ، فمنعه ــ الحرّ ــ الذى كانت تحاصره نظرات الرقيب الوافد من عند ابن زياد .. وغيَّر « الحسين » اتجاهه ، وسار بركبه والفرسان عن جانبيه .

ولكن إلى أين .. ؟

لقد خَشِىَ الحرّ أن تفْلِت الفرصة منه ، فتصدّى للركب السائر ، وأصرَّ على النزول حيث انتهت خطواته ..

ونزل الركب من فوق رواحله .

وألقى الحسين بصره على الفضاء الموحِش حوله ..

ثم سأل : ما اسم هذا المكان .. ؟

قالوا : اسمه كَرْبَلاء ..

فاختفى تفاؤله وراء إحساس بالجزع ، وتذكَّر ذلك اليوم الذى تحدثنا عنه من قبل .. يوم كان « الإمام على » فى طريقه إلى « صِفِّين » فوقف على نفس المكان ، وقال :

« هُنا ، محط رحالهم ، ومُهراقُ دمائهم » ..

تذكَّر « الحسين » المشهد كله ، فقد كان يومئذ مع أبيه .

وذاب الوجود من حوله فى لحظاتِ تأمُّلٍ حارة ، صاهِرة ..

كَرْبَلاء .. ؟؟!

ها هى ذى بين نُبوءة الأمس ، وواقع اليوم ، ومصير الغد !!

أىّ سِرٍّ للقدر ، ينْشُره ويطويه .. يُظهره ويُخفيه .. ؟!

وأيَّة حكمة إلهية ، تقود حياتنا بين مطالعها ومغاربها مُذعِنةً لقدَرِها الحكيم ، وتقديرها العليم .. !!

لقد راح البطل يستعيد بخواطره ذلك اليوم ، وتلك الواقعة ، وتلك النبوءة .. !!

وراح يهزّ رأسه المضئ فى حركة متأمّلة ، كمن أدرك الحكمة وطالعَ المصير ..

وارتسمت أمام مخاطره بحروف كِبارٍ آية القرآن العظيم :

(قُل لو كنتم فى بُيوتكم لبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم . وليبتلى الله ما فى صُدوركم ، وليمحّص مافى قلوبكم . والله عليم بذات الصُّدور) ..

ونهض فى قوة وطمأنينة ، وراح يشارك صَحبه فى شدّ الخيام ، فقد آن للعقيلات والأخوات أن يسترِحْن ، بعد ما أضناهُن لُغوبُ السفر ، ومشقّةُ الطريق ..

وراح وهو يعمل ، يردد فى حبور وتهلّل آية الله فى كتابه :

(إنَّ وليِّىَ الله الذى نزّلَ الكتاب وهو يتولَّى الصالحين) ... !!

الفصل السادس

المأساة والعظمة

وكان اليوم ، غُرّة المحرم ...

والعام ، الواحد والستين للهجرة ...

والمكان ، كَربَلاء .. على مقربة من نهر الفُرات ..

وقبل أن نبلغ اليوم العاشر من المحرم .. يومَ الواقعة الرهيبة ، والمهيبة .. يوم الآلام ، والمجد .. يوم الفاجعة ، والبطولة .. يوم المأساة ، والعظمة ..

قبل أن نبلغ هذا اليوم ، علينا أن نتابع الأحداث التى سبقته ، وكانت جزءاً من صميمه .

إن ابن زياد فى الكوفة يعمل ليل نَهار فى إعداد ضربته الآثمة التى تَلْهثُ وراءها روحه المظلمة المسعورة .. !!

وها هو ذاك ، يختار قواده للمعركة ، ويحشد المقاتلين ..

وحين يرى الناسَ يهربون من الانضمام لجيشه . يلجأ إلى طريقته فى معالجة العصيان ، فيجمع أهل الكوفة أمام قصره . ثم يأتى بأحد المضربين عن الاشتراك فى جيشه فيأمر بضرب عنقه ، ثم يلقى برأسه ليتدرج على الأرض أمام الناس الذين يفزعهم المشهد ، فيقبلون على طاعته كارهين ومكرهين .. !!

وتذكّر ابن زياد أن لديه جيشاً مجهّزاً ، قِوامه أربعة آلاف فارس ،

كان قد أعده تحت قيادة ـ عمر بن سعد ـ لمجابهة ثورة الدَّيْلم فى أرض همذان .

كما كان قد عيَّن ـ عمر ـ هذا والياً على الرىّ .. فدعاه إليه وأمره أن يخرج بجيشه إلى كربلاء .

واعتذر عمر بن سعد ، فراراً من أن تتلوث نفسه و يداه بجريمة لايطيقها ضَميره به مُسْكة من رشاد .. ! !

لكن الطاغية هدده بحرمانه من الولاية التى كان يطمح إليها و بعزله عن الجيش كله ، فضعفت مقاومة ابن سعد وغاب رُشده ، وقَبِل القيام بالمهمة البشعة ، وسار بجيشه إلى كربلاء ..

وكان مستشار ابن زياد لهذه الحملة الباغية ، مسْخ شائهُ الخَلْق والخلُق ، اسمه شِمْر بن ذى الجوشن .

رجل مدخول الإسلام ، انشقّت عنه الأرض بغتة فى الأيام الأولى لفتنة الخوارج الذين ناصَبوا الإمام علياً العداء .. فأدلى معهم بدَلْوِه ، عاملاً لحساب نفسه الخبيثة ، أو لحساب قوة خفية شِرِّيرة .

ومن تلك الأيام ، وهو يَكيد للإسلام ، و يُخرِّب فى صفوفه متخفياً وراء ذلك القِناع المشبوه ـ قناع انتمائه للخوارج وتسلله لهُ بمبادئهم إلى أغراضه المنكرة وأغراض القوى التى يعمل لحسابها .. ! !

ولقد نفث فى رُوع ابن زياد أن هذه فرصة عمره ، إذا استطاع أن يجهز على « الإمام الحسين » و يقدم رأسه هدية لسيده يزيد .. ! !

* * *

نحن الآن فى اليوم الثانى من المحرم ... وقد وافى كربلاء ـ

عمر بن سعد ـ في جيشه المكون من أربعة آلاف فارس ، كما ذكرنا من قبل .

ولقد عسكر هناك على مقربة من معسكر « الإمام الحسين » الذى لا يزيد على إثنين وسبعين من أهله وأنصاره وابتدأ عمر بن سعد مهمته باختيار أحد رجاله واسمه قره بن سفيان الحنظلى ، آمراً إياه أن يذهب إلى « الحسين » رضى الله عنه ، فيسأله : لماذا جاء ؟ ؟

وأجابه « البطل » :

« إن أهل هذا المصر ـ يعنى الكوفة ـ كتبوا إلىّ يذكرون أنهم لا إمام لهم ، و يسألوننى القدوم عليهم ، فجئت إليهم ..

وفى الطريق علمت نكوصهم ، فأردت الرجوع ، فمنعنى الحر بن يزيد ، وسار بى إلى هذا المكان » ..

وفرح عمر بن سعد ، بهذه الإجابة التى أثلجت صدره إذ رأى فيها بادرة لإمكان الوصول إلى حل سلمى ينجيه من خوض قتال يتمنى ألا يُطوّق عُنقه بأوزاره الثِّقال .. ! !

فبادر بالكتابة إلى طاغية الكوفة ، الذى أجابه على الفور بكتاب يقول فيه : « قد بلغنى كتابك ، فأعرض على الحسين البيعة ليزيد ؛ فإذا بايع ومن معه فاخبرنى وسيأتيك رأيى » .. !

وعرض ابن سعد كتاب الطاغية على « الإمام الحسين » فكان جوابه :

« لا أجيب ابن زياد إلى ذَلك أبدا . وإن يكن الموت فرحباً به » .. ! !

و يرسل إلى أميره بردّ « الحسين » فيكتب ابن زياد إليه : « إمنع الحسين وأصحابه الماء ، وحُل بينهم و بينه حتى لا يذوقوا منه حَسْوَة ، كما

فعلوا بالتقىّ عثمان بن عفان » .. !!

يا لَلفجّار حين يتوقّحون .. !!

تُرى هل سأل ابن زياد نفسه : اين كان يوم مُنعَ « عثمان » الماء .. ؟؟

وأين كان « الحسن والحسين وأبوهما الإمام » .. ؟!

أما هو، فكان جيفة تُنتقل فى مراتع الإثم ..

وأما « الإمام » .. ومعذرة إلى الله عن هذه المقابلة التى نلجأ إليها مضطرين ..

نقول : أمّا « الإمام » فقد كان يحمل قربة الماء على كاهله ، ويخوض بها بين الثوار مقتحماً صفوفهم ، متحدياً حِصارهم . يذودهم . و يذودونه ، و يدفعهم و يدفعونه ، حتى سقطت عمامته من فوق رأسه ، وحتى أنقذ الماء إلى الخليفة الظمآن ! !

أما « الحسين وأخوه الحسن » فقد كانا هناك بأمر من أبيهما ، يحرسان الخليفة و يذودان عنه عَوادِى الثوار .

ولقد جُرحا ، وسال منهما الدم .. ورغم مابذلاه من طاقة وجهد ؛ فإنهما لم ينجُوا بعد استشهاد « عثمان » رضى الله عنه من لوم أبيهما الشديد ، بل ولَطْمهما بيديه ، وهويصرخ فيهما :

« لماذا لم تموتا دونه » .. ؟!

والآن ، يزعم هذا الغرّ الكذوب أنه يثأر لعثمان ، ولا يتورع عن اتخاذ ذكراه وسيلة دنيئة يبرر بها وحشية وحرمان أبناء الرسول فى تلك الأرض القائظة من شربة ماء .. ! !

* * *

وعاد الحوار بين « الإمام الحسين » وعمر بن سعد ، فاستمسك « الحسين » بموقفه فى رفض مبايعة يزيد .

يقول «عقبة بن سمعان» وهو أحد اثنين من أصحاب «الحسين» خلصا من المعركة :

«صحبت «الحسين» من المدينة إلى مكة ، ومن مكة إلى العراق .. وسمعت جميع أحاديثه حتى يوم مقتله ..
فوالله ما زاد على أن قال لهم : دعونى أرجع إلى البلد الذى أقبلت منه ، أو دعونى أذهب فى هذه الأرض العريضة ؛ حتى ننظر ما يصير إليه أمر الناس .. فلم يفعلوا» !!

هو إذن ، لم يعرض كما تزعم بعض الروايات الدخيلة أن يذهبوا به إلى يزيد فيضع يده فى يده ..

هذا تحريف واضح .. وإلاّ ففيم إذن كان امتناعه عن أن يقول بلسانه : بايعتُ يزيد ، فينفضّ جيش ابن زياد ، و ينتهى كل شئ .. ؟!

لقد رفض الذهاب إلى الكوفة للقاء ابن زياد ..
ثم رفض طلب ابن زياد ، بأن يُبايع يزيد ..
وها هو ذا الهول يحيط به وهو صامد ، يرفض الإذعان لعصابة البغى والإثم فى عزةّ المتقين ، وإباء الأكرمين .. !!

وضاق صدر ابن زياد بصمود البطل ، ففزع إلى مستشاره الزنيم شمر بن ذى الجون ، فأشار عليه أن يقسو على — عمر بن سعد — فى خطابه ، و يأمره أن يجئ بالحسين ومن معه إلى الكوفة عنوة ، فإن أبوا ، قاتلهم حتى الموت ..

و يلمح شمر ، الممتلئ بقذارة النفس وخبث الطوية .. يلمح فى ذلك الحوار الدائر بين «الحسين» وعمر بن سعد بادرة قد تُفضى إلى مهادنة أو تفاهم — الأمر الذى لا يُشبع نَهمَه الخبيث إلى التقويض والتخريب اللذيْن يعمل لهما منذ زعم الإسلام وادّعاه .. !!

هناك هداه تفكيره الخبيث إلى أن ينتقل بنفسه إلى أرض القتال ، ليتولى إضرام النار، إذا هى لم تُضرِم نفسها وليَصِل بالمعركة بعد شُبوبها إلى الغرض الذى يريد . !!

وهكذا اقترح على ابن زياد أن يحمل كتابه بنفسه إلى قائد جيشه عمربن سعد ، ويبقى هناك عيناً لابن زياد ورقيباً ، ومقاتلا أيضاً ...
واشترك مع أميره الطاغية فى صياغة كتابه إلى ابن سعد ، ثم هَرْوَل به إلى كربلاء ..

« من عبد الله بن زياد أمير الكوفة والبصرة ، إلى عمربن سعد ، فإنى لم أبعثك إلى « الحسين » لتكُفَّ عنه ، ولا لتكون له عندى شفيعاً .

ادْعُ « الحسين » إلى ما أمرتك ، فإن نزل واصحابه على الحكم مستسلمين ، فابعث بهم إلىَّ . وإن أبوا ، فازحَف عليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم .
وبعد أن يُقتل « الحسين » أوطئ الخيل صدره وظهره .. فإن مضيت لأمرنا ، جزيناك جزاء السامع المطيع .. وإن أبيت فاعتزل جندنا .. وخَلِّ بين شمر بن ذى الجون والعسكر والسلام » .. !!

لم يكد عمر بن سعد ، يتلو خطاب أميره حتى أدرك ما وراءه من كيد ابن ذى الجون ، فقال له .
« لقد أفسدت علينا أمراً كنا نرجو صلاحه .. والله لن يستسلم الحسين أبداً » ..

فأجابه شمر: « امْضِ لأمر أميرك وقاتِل ، أو فخَلِّ بينى وبين الجند » ..

ومرة أخرى ، غُلب ابن سعد على دينه ، واستسلم لأطماعه وهواه ،

فرضى أن يبقى قائداً لحملة رجيمة ، وجيش ظلوم ! !

وضَحَتِ النوايا إذنَ ، أمام « الحسين » ..

إنهم يريدون إذلاله ، أويريدون حياته ..

أما المذلَّةُ ؛ فالمماتُ دونها ! !

وأما حياته ، فليسَ هو أول مَن يجود بها فى سبيل الحق من آل بيته العظيم ، ولن يكون آخر من يجود بالحياة منهم ..

الصعب فى الأمر ، أنهم لا يريدون أن يقاتلوا قتال الشرفاء ، بل ولا قتال الآدميين ! !

إنهم لا يقنعون بمواجهته فى أربعة آلاف فارس . بينما كل الذين معه من أهل وصحب ، اثنان وسبعون لا غير ..

أجل .. إنهم لا يقنعون بتفوقهم العَدَدىّ الساحق ، فيحُولون فى صَغارٍ ولؤم ، بينه و بين الماء ، وهم يرون مَن وراءه فى الخيام من سيدات ، وأطفال ، ومرضَى ! !

لقد حاصروا الطريق إلى الشريعة بخمسمائة فارس .. وجَفَّتِ القِرَب التى كان أخوه « العباس بن على » قد ملأها من قبلُ عُنوة ، وقبل أن يَضْرى حولها الحصار .

ولقد يصبر « الحسين » و يصبر رجاله على الظمأ إلى حين ، ولكن الأطفال والنسوة الذين لم يعد يُطاق مشهدهم وهم يترنحون تحت وطأة الظمأ القاتل ! ! ماذا يصنع البطل لهم .. ؟ !

تُرى هل أسِف على خروجه من مكة إلى حيث هو الآن . ؟

إن المؤمنين لا يأسفون على خَطر ، ولا يَجزعون من قَدَر ..

ولعلَّه قد أسِف لشئ واحد ، هو أنه لم يستمع لنصح ابن عمه « عبد الله ابن عباس » ألاَّ يصحب معه الحرائر والأبناء . ومع هذا ، فللّه الأمر من قبل ومن بعد ! !

ولسوف يصبر على واجبه ، و يُعانق مصيره بما عُرف عن بيته الكريم من رضاً وثبات وولاء ..

هكذا وقف ابن الرسول الأكرم .. وقف ابن «على» البطل ، و«فاطمة» الزهراء الموقفَ اللائق به ، والمقدورَ له ..

كان يستطيع أن يُخادعهم ، والحربُ خُدعة ..

بل كان من حقه لو شاء أن يبايع بلسانه ، حتى إذا عاد بأهله إلى مكة واطمأن على سلامتهم ، خلى البيعة وألقى بها إلى التراب ، وله من دينه فى مثل ذلك رُخصةٌ سجلها القرآن فى بعض آياته فقال :

(.. إلاَّ مَنْ أكرِهَ وقلبُه مطمئنٌ بالإيمان) .

ولكنه سليل بيت ، ليسَ من طرازه سواه . وابنُ رجال لا يركَبون الرّخص ، بل يعانقون العزائمَ !! ...

إن عاقبة المعركة لواضحة مقروءة .. فاثنان وسبعون ، لن يَهزموا .. بل يُفلِتوا من أربعة آلاف فارس ضربوا حول القِلّة الصامدة أبشع حصار ... إنه لا أمل فى النصر .

ولكن ، أىّ نصر هذا الذى لا أمل فيه .. ؟ النصر العسكرى فى معركة غير متكافئة .. ؟ ؟

ليكن ذلك ، فأين النصر الآخر ، الأعظمُ ، والأكرمُ ، والأبقى .. ؟

النصر الذى يتحقق و يتمثل فى بذل الحياة من أجل الواجب .. وفى إعطاءِ القدوة بروعةِ الثبات .. وفى إضاءة ضمير الحياة بجلال التضحية .. ؟ !!

هذا النصر ، هل فقد «الحسين» الأمل فيه ؟ ؟ لا .. بل لقد تجسَّدت فيه كل آماله وآمال الذين معه ، ومن ثم تشبَّث وتشبَّثوا به فى وله عظيم ، وراح يقاتل و يقاتلون فى سبيله على نحو يجلّ عن النظير .. !!

وإننا لنظلم يوم كَربلاء ظلماً كبيراً ، حين نظنه مأساة لاغير .. وفاجعة لاأكثر .. ونتخذه مناسبة لاجترار الأحزان والآلام ..

لا .. ثم لا ، يا رجال !!

إنه مأساة وفاجعة إذا نظرنا إلى الشكل الخارجي للمعركة ، فرأينا السَّفلة الأدعياء ينتصرون .. ورأينا الوحشية المجرمة تفتك بأبناء الرسول .

لكنَّ يوم كربلاء ليس مأساةً وفاجعة ، إذا نفذنا ببصائرنا إلى جوهره النضير ، فرأينا عظمة الثبات ، وروعةَ البطولة ، وعزةً الإيمان ، وجلالَ التضحية ، فى مهرجانٍ للحق ، هيهات أن يكون له نظير .. !!

وستكون لنا إن شاء الله وقفة مع هذا المعنى الجليل الخالد فى الفصل القادم من الكتاب .

أما الآن ، فإن علينا أن نسارع إلى مكان المعركة الأليمة والعظيمة ؛ فإن ساعاتِها الحاسمة تقترب .. !!

نحن الآن مع اليوم التاسع من المحرم ، وقد ولّى نهاره ودَلِف ليل جديد !!

ولقد أخذ جيش ابن زياد يتحرك للوثوب ..

ورأى الحسين تحرّكاتهم ، وتذكّر واجباً لابد من أدائه قبل أن يبدأ القتال .

هنالك أرسل إلى قائدهم عمر بن سعد ــ طالبا إرجاء القتال إلى غد .. وأجابه ابن سعد إلى ماطلب .. ولعلّه ظن أن وراء هذه الرغبة فى الإرجاءِ عزماً على طلب التسليم وعلى بيعة يزيد !!

ترى ، لماذا طلب « البطل » إرجاء القتال .. ؟ ؟

هل لِيُدبر خواطره من جديد حول موقفه ؟

هل اقترب اليأس من عزمه ، فأراد أن يفكر مع نفسه فى البحث عن مخرج يُوَقّيه وأصحابه ماينتظرهم من هول .. ؟

كلا .. لم يكن لشيٍ كهذا أى وجود فى رُوع البطل ، ولا فى تفكيره .

فهو قد وطَّن نفسه على الموت من أولى ساعات المؤامرة التى بدأت مع طلائع جيش ابن زياد ..

وهو لا يعرف خِياراً ، بين أمرين ، ثانيهما خذلان الحق و بيعة يزيد ! !

إن أمامه طريقاً واحداً ، ليس لمثله أن يسلك فى هذه القضية سواه .. ذلكم هو سبيل التضحية بالحياة ، ولو أمكَن ؛ فَبألف حياة .. ! !

إنما طلب إرجاء القتال إلى الغد ؛ لأنَه عظيم جدّ عظيم .. ليس لعظمة نفسه منتهى ، وليس لنُبْل روحِه حدود ! !

انظروا ...

عندما استبانت له نتيجة المعركة . أراد أن يدفع حياته وحدها زلّفى لها وقُرباناً .. ! !

لم يشأ أن يدفع لسيوف البغى حياة أنصارِه الخمسين ، ومعهم الأشبال والرجال من أهله وأبنائه ، بعد أن تغير الموقف بالنسبة لهم ..

لقد خرجوا معه على حساب أن الكوفة فى انتظارهم ، ليبدأوا منها وبها مقاومة مشروعة ، يدْحَضون بها ضلال حاكم الشام ، و يَدرأون بها عن الإسلام خُبْثَ بنى أمية ..

لكنهم فوجئوا بالكوفة تنتظرهم بوجه آخر كالح وعَبوس ..

فرُسُل « الحسن » صُرِعوا ، واستشهدوا ..

والألوف التى أعطت بيعتها لمسلم بن عقيل ، تبدَّدتْ واختفت كالجرذان .. ! !

و بدلاً من أن يجد البطل فى استقباله كتائب الحق من شيعته وأنصاره ، وجد عصابات البغى تنتظره بالغدر والمنايا .. ! !

إذن ، الموقف قد تغير بالنسبة للذين معه من أهل وأنصار ..

وإن لم يكن قد تغير بالنسبة له ، ولما وطّن عليه إرادته ، وعزمه ، وضميره .

وهكذا طلب إرجاء القتال ، ليجعل أهله وأصحابه فى حِل ٍّمن كل التزاماتهم تِجاهَه . !!

وهكذا جمعهم فى الليل ، وقال لهم بعد أن حَمِد الله وأثنى عليه :ـــ

« .. أما بعد ، فإنى لا أعرف اصحاباً خيراً من أصحابى ..
ولا أهلَ بيت أبرَّ ، وأوصلَ من أهل بيتى .. فجزاكم الله خيراً ؛ فقد بررتُم وأعَنْتُم ..
وإنكم لتعلمون أن القوم لا يريدون غيرى .. وإن يومى معهم غد .. !!
وإنى قد أذِنت لكم جميعاً ، فانطلقوا فى غير حرج . ليس عليكم منى ذِمام ..
هذا هو الليل قد غشِيَكم ، فانطلقوا فى سواده قبل أن يطلع النهار ، وانْجوا بأنفسكم » ..

مَن لمثل هذا الموقف المعجز ، مِثل ُابن «على» وحفيدِ «محمَّد» ؟؟!

مَن ، يا رجال ... !!؟؟

وهو لم يقلها لأهله وصحبه استدراراً لعطفهم ؛ فماذا يُغنى عطفهم فى هذا المقام ؟؟

إنما كان يعنى تماماً كل كلمة قالها .. كان يعنى تماماً ألاَّ يُحمِّلهم مسئولية الموقف الذى اختاره ، والهولَ الذى قرر أن يُواجهه فى استبسال . !!

تُرى ، هل يتقبل الأهل والأنصار رأيه هذا ، وتوجيهه ؟ كلاَّ ..
ولماذا ... ؟؟

لأن العظمة ، ولأن البطولة كانتا في ذلك اليوم على موعدٍ مع هؤلاء الأبرار جميعاً فتياناً وكهولا ؛ لتحققا بهم أروع مشاهدهما ، وأسمى أمجادهما .. !!!

من أجل ذلك ، لم يكد البطل يفرغ من كلماته ، حتى تحولوا جميعاً إلى أسوذ تزأر بالكلمات ، وتشرَقُ بالدموع !!

صاح أخوه لأبيه « العباس بن على » :ـ

« مَعاذ الله والشهر الحرام .. وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم ؟؟

نقول : تركنا سيدنا وابنَ سيدنا غرَضاً للنبال ، ودريئةً للرماح ، وجَزَراً للسباع .. وفررنا عنه رغبة في الحياة ؟؟!!

معاذَ الله .. معاذَ الله .. بل نحيا بحياتك .. ونموت معك » .. !!

وصاح بمثل ذلك « بَنو عقيل » و « بَنو جعفر » وتقدم ابنه « على بن الحسين » ـ فتىً لم تجاوز سِنُّه التاسعة عشر .. !!

وسأل أباه :

« ألسْنا على الحق يا أباه ؟؟ »

قال الحسين :

« بلى ، والذى أنفُسنا بيده .. »

فصاح فتاه العظيم :

« إذن ، والله لا نُبالى » .. !!

ومن أصحابه وأنصاره ، قام « زهير بن القَيْن » يَزأرُ و ينادى :

« والله ، لوددتُ أن أقتَل ثم أبْعَث .. ثم أقتَل ثم أبْعَث .. هكذا ألف مرة ، أكون فيها رِدْءاً عن حياتك وحياة هؤلاء الفتيان من آل بيتك » .. !!

وتلاه « مسلم بن عَوْسَجة الأسدى » :

« أنحنُ نتخلّى عنك ، ولم نعْذِر إلى الله فى أداء ِحقك ؟ ؟
أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رُمحى ، وأضربهم بسيفى ماثَبت قائِمُه بيدى ..!!
ولو لم يكن لى سلاح ، لقذفتُهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » !!

وقام آخر.. وآخر.. وآخر..

هَبُّوا جميعاً يُعطون أمجد بيعة فى تاريخ التضحية والفداء . بيعة على موت مُحقق .. فليس هناك لما دون الموت أدنى احتمال !

ألم أقل لكم : إن العظمة والبطولة أرادتا أن تجعلا من ذلك اليوم مهرجاناً وعيداً .. ؟؟!!

لقد ارتفع الأبطال جميعاً إلى مستوى الموقف المجيد ، الذى سيجعلون منه درساً لأجيال الدنيا كلها فى الولاء الباهر للحق ، وفى التضحية الشاهقة من أجله .. وهاهم أولاءِ يعودون لمضاربهم وخيامهم .. يتهيأون للقاء الغد بالصلاة والابتهال وبِشحْذِ سيوفهم ، وبَرْى سهامهم ، وصَقْل رماحهم !! ..

ومن طريف ما حدث فى ليلتهم تلك ، أن « نافع بن هلال البُجَلى » رضى الله عنه وعنهم أجمعين ، قضى شَطْر ليله فى كتابة اسمه على سِهام نَبْلِه ، إمعاناً فى طلب المثوبة والأجر.. وإمعاناً فى السخرية من الخطر.. وإمعاناً فى الترحيب بالموت .. !

وطلَع الصباح .. وأقبل اليوم المشهود .. العاشر من المحرم !!
بدأ البطل يومه المجيد بصلاة الفجر.. أمَّ فيها أهله وصحبه .
وطلعت الشمس على سبعين ، أو اثنين وسبعين بطلا فى جانب ..
وأربعة آلاف ذئب فى الجانب الآخر..

ووقف « الحسين » يعبّئ رجاله .. فجعل « زهيربن القين » على الميمَنة .. و« حبيب بن مظهر » على الميسرة .. وأعطى الراية أخاه « العباس بن على » .. وتقدم شباب آل البيت ، ليأخذوا مكانهم فى الصف الأول فدفعهم عنه الأنصار قائلين :

« معاذَ الله أن تموتوا ونحن أحياء ، نشهد مصارعكم . بل نحن أولا ، ثم تجيئون على الأثر » .. !!

وهكذا وقفوا فى الصف الثانى وراء القائد والأنصار . وفى الجانب الآخر وقف ــ عمربن سعد ــ يُعبّئ جيشه ، و ينظم ميمنته وميسرته .

يا ويحهم .. ألا يَخجلون ؟؟ !! أربعة آلاف ، لاثنين وسبعين . ؟؟ !!

وفى سبيل ماذا .. ؟؟

فى سبيل باطل يَروْنه رأى العين ، وفى سبيل أكذوبة صغيرة اسمها ــ يزيد ــ ، وجريمة منكرة ، اسمها ــ ابن زياد ــ . ؟ !

ومن عجب أنهم كما يحدثنا التاريخ ، خرجوا لجريمتهم تلك بعد أن صلّى بهم قائدهم صلاة الصبح .. !! أصحيح أنه صلوا ، وقرأوا فى آخر صلاتهم :

« اللهم صَلِّ على محمد ، وعلى آل محمد .. ؟ ! »

إذن ما بالهم يَنفتِلون من صلاتهم ليحصدوا بسيوفهم الآئمة آل محمد .. ؟ ! لكنْ كان « نافع بن هلال البَجَلى » صادقاً وهو يقول لابن ذى الجون الشقى :

« والله لو كنتَ من المسلمين ؛ لَعظُمَ عليك أن تلقى الله بدمائنا .. فالحمد لله الذى جعل مَنايانا على أيدى شِرار خلقه » .. !!!

أجل ، الحمد لله .. فتلك مزية ادَّخرها القدر للحسين وأصحابه ــ أن يجئ مصرعهم المقدر على أيدى شرار لا يُقيم الله لهم وزناً فى الدنيا ولا فى الآخرة ..

فلكَمْ يشُقّ على الأنفس المؤمنة أن تجئ مناياها على أيدى قومٍ خِيار !!

أتذكرون كلمات أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » عندما أفاق من غشية الطعناتِ الغادرة التى وجهها إليه وهو يصلى ، أبولؤلؤة المجوسى .. ؟

لقد تهلّل وجه «عمر» حين عرف هويَّة قاتله .. وحَمِد الله كثيراً ، إذ لم تجئه الضربة من بَرٍ تَقِىّ .. وجاءت من ذلك المجوسىِّ الزنيم . !!

ومن الحظوظ الوافية للحسين وأصحابه ، أن خُصومهم فى تلك المعركة كانوا أشراراً .. أشراراً من الرأس إلى القاع .. ولم يكن فيهم خيِّر واحد ، ولا بَرٌّ واحد يمكن أن يُشكل وجوده بينهم أمارة احتجاج أو علامة استفهام .. ؟ !!

* * *

أو شَك القتال أن يبدأ ..

ولكن قبل أن تنقذف أول سهامه ، وقع حادث عجيب ..

أتذكرون « الحُرّ بن يزيد التميمى » قائد الطليعة التى أرسلها ابن زياد من الكوفة .. والذى التقى بركْب « الحسين » واضطره للنزول فى كربلاء . ؟؟

إنه لم يكد يرى القتال على وَشْك البَدء ، حتى أحسَّ فداحة الجريمة التى ستلوِّثه ، وبشاعة الوزر الذى سيحمله ، وظلام المصير الذى سيكون له عند الله ، فخرج بجواده من صفوف فرسانه ، واقترب من قائد

الجيش ــ عمر بن سعد ــ وصاح به :

ــ أمُقاتِلٌ أنت ذلك الرجل .. ؟

قال ابن سعد :

ــ نعم والله ، قتالاً أيسرُهُ أن تبتر الأيدى ، وتطوّح الرؤوس ! !

قال الحُرّ:

ــ أوَلستُم تاركيه يرجع إلى حيث أتى ، أو يضرب كما قال فى الأرض العريضة .. ؟

قال ابن سعد :

ــ لو كان الأمر بيدى لفعلت .. ولكن ابن زياد يأبى ذلك ..

فصاح « الحُرّ» وهو يدفع جواده نحو صفوف الحسين (إذنْ ، فقاتِلْنى معه) .. ! !

ونزل من فوق جواده ، يعانق « الحسين » ودموعه تتفجّر من مآقيه ، و يقول له : ــ

« قد كان مِنى بالأمس ما كان . وقد استبانَ لى حقك ، فجئتك أفتديك بنفسى .
أفترى فى ذلك توبةً لى مما صنعت » .. ؟ ؟

وأجابه البطل ، وهو يضمُّه إلى صدره النبيل :

« إنها خير توبة ، فأبْشِر .. فأنت الحرّ فى الدنيا .. وأنت الحرّ فى الآخرة إن شاءَ الله » .. ! !

وكما صنع « الحرّ بن يزيد » صنع بطل آخر ، هو « يزيد الكندى » .. لقد غادر مكانه فى جيش ابن زياد ، و بصَق عليه ، ثم انطلق يَعْدو بجواده إلى جبهة « الحسين » العظيم .. ! !

* * *

والآن ..

أتبصرون ذلك السهم الذى انطلق يُمزِّق الهواء فى اتجاه « الحسين » وأصحابه ؟ ؟

إنه السهم الذى قذفه ــ عمربن سعد ــ قائد جيش ابن زياد معلناً بدء القتال ..

وتلاه على الأثر، بُروز صف من رجال ابن سعد يطلبون المبارزة .

ومن صفوف الأبطال خرج إليهم أكفاؤهم الأشِدّاء ..

هذا « عبد الله بن عمر الكلبى » .. مؤمن من الكوفة لم يكد يعلم باحتجاز « الحسين » عند كربلاء ، حتى اصطحب زوجته معه وشدّ إليه الرِّحال .

ها هوذا يوَفِّى لله بيعَه ..

وها هوذا ، يخرج إلى مَبارزِه ، فيصرعه من فوره .

وكان استهلالاً باهراً ، أطار صواب الآخرين ، فهجم عليه الشياطين المرَقَــة حيث ضربة أحدهم بسيفه فطارت أصابع كفه فى الهواء . لكنه انثنى على ضاربه فصرعه فى لحظة ..

وتكالَب عليه آخرون ، تنكَّروا حتى لِشَرف المبارزة وقواعدها ، لاسيَّما حين رأوا أن جميع مُبارزيهم صُرِعوا بأيدى الذين خرجوا إليهم من أنصار « الحسين » ..

ولم يتركوا الرجل إلا عندما أبصروا فريقاً من أصحابه يقتربون منهم بسيوفهم المشرَعة .. عندئذ ولوا عنه ، وهو مُثْخن بجراحه .

واشرأبَّت زوجته من بعيد ، فبصُرَت به ، وانطلقت تُهرول إليه حاملةً بيُمناها حربة طويلة . حتى إذا بلغته راحت تحتضنه بين ذراعيها لينهض قائماً وهى تقول له .

« فِداكَ أبى وأمى ..
قاتِلْ دون الطيِّبين من ذرُية محمد » ! !

لكنه يصيح بها ، و يضرع إليها كي تعود إلى خِبائها ، فإذا هي تُلَعْلع بصوتها الواثق :

« لا ، لن أعود .. ولن أدعَك تذهب إلى الفردوس وحدك » .. !!

ولكنه يزحف بجسده المُثْخن ، و يدفعها أمامه نحو الخيام . فتستعصى عليه ، وتستميت دون الرجوع .

و يلمح « الحسين » المشهد من بعيد فيناديها :

« جُز يتُم عن أهل بيتي خيراً ..
ارجعي يرحمك الله ، فليس عليكُنَّ قتال » .

وآنئذ لا غير، تمتثل وتطيع ، فإنها لا تستطيع لامر ابن الرسول عصياناً !!

و يستأنف « عبد الله بن عمر الكلبي » زحفه فوق أرض جاشَتْ بالصراع ، ضارباً بسيفه ذات اليمين وذات اليسار، حتى غاضَتْ حياته تحت وطأة الهول الذى كان جسده قد تلقّاه . !!

ومرة أخرى ، تندفع إلى أرض القتال زوجته التى صمَّمت على ألا يذهب قبلها . وألا يذهب دونها إلى الجنة . وراحت تبحث بين جثث الشهداء حتى وجدته ، فجلست بجواره تُسَجِّيه بحنانها ، وتضمَّه بكيانها ، وتقبِّل الجراح التى رصَّعَت جسده وهى تصيح : « هنيئاً لكَ الجنَّة » .. !!

ثم ربضَت إلى جواره ، و يدها على مِقبض سيفه ، لتحرس جثمانه من الوحوش الذين كانوا يعودون إلى الشهداء ، ليحتَزّوا رؤوسهم !!

لكن الشقي الزنيم ـــ شمر بن ذى الجوْن ـــ أبصرها ، فأمر واحداً من شياطينه ، غافَلها من الخلف وهشَّم رأسها ، وهكذا لم تحرم من صحبة زوجها إلى الفردوس الأعلى .. !!

* * *

التحمت الجبهتان التحاماً رهيباً .. ورأى جنود زياد كثرة القتلى الذين يسقطون منهم رغم كثرتهم الهائلة ، فجُنَّ جنونهم ، وهجَم فُرسانهم فى ضراوة ..

وبَرز لهم فرسان « الحسين » الذين لم يكونوا أكثر من اثنين وثلاثين فارساً ، فدمَّروا هجومهم تدميراً ، وجاوزوا الدفاع إلى الهجوم فى سرعة ماحقة ، وأحاطوا بفرسان ابن زياد ، ثم مَرقوا داخل صفوفهم يُطوِّحون برؤوسهم كالذباب ! !

وسُقِط فى يد قائدهم (عروة بن قيس) فنادى (عمر بن سعد) من فوق صهوة جواده ، كى يُدركه بالرماة ! ! وأمر (ابن سعد) جيشه فتقدم بأجمعه ، يتقدمه خمسمائة من الرّماة ..

وكَبَّر « الحسين » تكبيرة هزَّت الأرض ونادت زلْزالها . وانقذَف يضرب بسيفه ، فكأنه قدَر ، لا رادَّ لأمره .. ولا مهربَ من حُكْمِه ! !

كان يَشدّ كالليث على غريمٍ فيصرعه .. ثم يبصر آخر فى طريقه بسيفه الغادر إلى بعض أصحابه ؛ فينْثَنى إليه كالصقر ويُرْديه ! !

وحلّ روحهُ الغلاَّب فى أفئدة أصحابه ، فاشتعل حماسُهم ، واتَّقدَ مَضاؤهم وامتلأت أفئدتهم المؤمنة عزماً وشوقاً ، وراحوا يضربون ويقاتلون ، فى استبسال عظيم .

كانوا كلما قلَّ عددُهم بوقوع الشهداء منهم ، ازدادوا إقداماً وقوة .. لكأنما كانت أرواح شهدائهم تستأنف بعد انطلاقها من أجسادها ، نضالها وقتالها .. ! ! !

لم يكن أصحاب « الحسين » يتعجَّلون النصر ؛ فما أبعد النصر عن قوم يقاتلون فى مثل ظروفهم وبمثل عددهم .

إنما كانوا يتعجَّلون الجنة ؛ إذْ لم يكن لديهم ريب فى أنها المُنتهى والمصير .. ! !

وركّز رُماة الأعداء ضرباتهم على الجياد التى يمتطيها فرسان «الحسين» فعقروها جميعاً ..

وهبط الفرسان إلى الأرض ليقاتلوا مع إخوانهم .

كان كل بطل من أصحاب «الحسين» يتكاثَرُ عليه عشرات من جيش ابن زياد .

وهذه وحدها ، تُرينا كيف كانت ضراوة القتال وعظمة الاستشهاد !!

ورغم ما كان لجيش الباطل من تفوّق ، فقد كان الفزع من نصيبه وحده .

وليس هناك ما يصور هذه الحقيقة مثل إقدامهم على حَرْق المضارب والخيام التى كانت لأهل الحسين وأنصاره .

لقد أحرقوها ؛ ليشغلوا بإطفاء نارها المندلعة تلك القِلّة الصامدة لقتالهم والمطوِّحة برؤوسهم . !!

واشتعلت الحرائق عالية ، فنادى «الحسين» فى ثَبات عجيب :

«لا بأس .. اجعلوا الحريق وراءَ ظهوركم ؛ فلا يستطيعوا اجتياز النار إليكم» !!

ونجا فُسطاط «الحسين» من الحريق ..

وفى خضمِّ هذا الهول الذى شكّله القتال الضارى الوبيل ، وقف «البطل» يُقلّب وجهه فى السماء !!

لقد كان ينتظر مَقْدم عزيز لم يُخلِف قط موعده معه ــ ذلكم هو الصلاة .. !!

أجَل .. لقد انتصف النهار ، وجاءَ ميقات الظهر ، وموعد صلاته .

وللصلاة فى ميدان القتال طريقة خاصّة .. وهكذا نادى «الحسين» لصلاة الظهر ــ صلاة حرب وقتال !

هل رأى الناس شيئاً كهذا ، فى جلالِه ، وجمالِه ، وعظَمتِه .. ؟

حتـى المـوت يـنـوشُـه و يَـنوش أصحابه من كل جانب ، لا يغفل عن واجب ربه ، ولا عن فرائض دينه ! !

و يَـفـرغـون من صلاتهم ، ليواصلوا جهادهم ، وقد بدأ النصف الثانى من النهار..

أىّ إعجاز كان هذا الذى حدث .. ؟ ؟

وكـيـف صـمد اثنان وسبعون طيلة هذا الوقت لأربعة آلاف فارس ، ورامٍ.. وكيف ستظلّ بقيّتهم صامدة حتى آخر النهار.. ؟ ؟

أوَ كلَّ هذا الثبات ، يهَبُه الحق أتباعه وأشْياعَه .. ؟ !

أجل ، وأكثر من هذا يمنح الحقّ و يُعطى ..

* * *

لـقـد أحـاط الـبـاقـون مـن أصـحـاب « الحسين » به يقاتلون من حوله و يَـذودون عنه .. وكل أمانيّهم أن تواتيهم مناياهم وهم بين يديه ، أو عند قدميه .. ! !

* فهذا « حنْظَلَة بن سعد البشامى » ينادى أعداء الحقّ :

« إنى أخاف عليكم يومَ التَّناد .. فإياكم وقتلَ « الحسين » ؛ فقد خابَ مَن افترى » ..

ثم يـثـبـت بين يـديـه كـأنـه جبَـل ، لا تـُزحزحه عن مكانه عشرات الـسـيـوف والـرمـاح الـتـى اتخـذتـه هـدفاً .. و يـظـل يـقـاتـل حـتى يقع شهيداً .. ! !

* وهـذا « سيف الله بن الحارس وأخوه مالك » يقتربان من البطل ، و يعانقانه ، ثم يقولان له :

« موعدُنا الجنـَّة » ! !

و يقاتلان معه ومن حوله حتى تدركهما الشهادة ! !

* وهذا « عبد الله بن عروة وأخوه عبد الرحمن » يخوضان فى صفوف الأعداء و يُصْليانهم سعيراً ..
و يُثقَل جسداهما بالطعن و بالضرب والجِراح ، فيقعان على الأرض خائرة قُواهما .. ثم لاتكاد أعينهم المجهدة تقع على البطل يقاتل وحده عشرات من الأعداء القُساة حتى تنتفض فيهما من جديد عافية الأُسود ، و يتضرَّم بأسهما .. و ينهضان من بين يديه فى قتال مر ير حتى يقع أجرُهما على الله شهيدين عظيمين !!

* وهذا « شوذب » و« عباس بن أبى شبيب » و« نافع بن هلال البجلى » و« سو يد بن أبى المطاع » وعشرات من إخوانهم المباركين ، راحوا يقاتلون فى جسارة وغبطة .. كلما سقط أحدهم جريحاً نهض فوق جراحه ، وسبح فوق دمائه حتى يعود فيقاتل .. و يقاتل فى عزم شامخ وثبات مَكين ؛ حتى لحقوا جميعاً بإخوانهم الذين سبقوهم أول النهار — « زهير بن القين » و« عبد الله بن عمر الكليبى » و« الحرّ بن يز يد » و« و يز يد الكندى » .. أولئك الأبطال الذين قاتل الواحدُ منهم وكأنه جيش وحده .. والذين أبْلَوْا فى المعركة بلاءً يتعاظَمُ كل وصف وكل إطراء .. !!

* * *

وتقدم آلُ بيت الحسين ..
تقدم أبناء الرسول نحو مصايرهم العظيمة ..
لم يَعُد الذى يُضْنيهم ، الظمأ إلى الماء الذى حرمهم منه المجرمون .
بل الظمأ إلى الشهادة .. والشوق إلى الجنة !! لقد كانوا فى لحظاتهم المجيدة تلك ، يشَمُّون عبير جدِّهم الرسول .. وجدتِّهم خديجة .. وعبير حمزة .. وجعفر .. وعلى .. وفاطمة .. فيدركون أنهم صاروا فى الجنة على قُربِ ذراع ، فينطلقون نحوها فى هُيام .. !!

وكانَ أولهم انطلاقاً « على بن الحسين » ..
فتىً لم يجاوز التاسعة عشرة من عمره ! !
انظروا ! !
ها هو ذا ــ فى نضْـرَة شبابه .. ورَيْعان إهابِه .. فى روعة بأسِه .. وشرَفِ نفْسِه .. يتوسَّط حراب الأعداء وسيوفهم ، وهو ينشد :

أنا علِيّ بنُ الحسين بن علِيّ
نحنُ وربِّ البيت ، أوْلى بالنبيّ
تالله ، لا يَحكُم فينا ابنُ الدعِّيّ

تماماً ، كما كان يصنع من قبل جَدّه « الإمام على » حين كان يقتحم المعارك فى عُنفوانه اللَّجِب ، وهو يزأر :

« أنا الذى سمَّتنى أمى حَيْدَرَه
كلَيْثِ غابات ، كريهِ المنظَرَة
أوفيهُموا بالصَّاع كيل السِّندرَة

ها هو ذا ، ابن التاسعة عشرة ، يعيد إلى الحياة مرة أخرى بطولات جده العظيم .
ذرِّيَّة بعضُها من بعض ! !
ويمضى ، يَضرب ويُضرَب .. حتى تصيبه طعنة رمح ؛ فيقع على الأرض ، وقبل أن يتحامل على جراحه لينهض من جديد كانت عشرات السيوف الباغية قد مزقَّت جسده الغَضّ الشريف ! !
ويراه الحسين .. مجَّدَ الله الحسين ــ فيُسرع نحوه .. ويسرع معه شباب بنى هاشم . ! !
وفى رباطة جأش تُذهِل كل حيٍّ ، حمل البطل ابنه الحبيب ، ثم سجَّاه على ذراعى واحد من بنى عمومته ، وأمره أن يذهب به إلى فُسطاطه .

ولا تكاد الطاهرة البَتول « زينب بنت على » رضى الله عنها وأرضاها .. لاتكاد تبصر جثمان ابن أخيها حتى تعلُوَ زفراتُ أساها ..

أهذا الذى كان من دقائق معدودة ، يملأ الأعيُنَ ، شبابُه ، وبهاؤه ، وسَناؤه .. ؟؟

هنالك انكبَّت على الأشْلاءِ الطاهرة الناضرة ، تُضمِّخها بدموعها وشَجُنِها ..

وأثَّر فى البطل مشهد أخته ، فسار إليها يسألها الصبر .. و يقودها فى رفق إلى خِبائها .

وعاد هو إلى ساحة القتال ..

لم يكن هناك على أرض المعركة سوى أهل بيته ..

أما أصحابه وأنصاره ، فقد رحلوا جميعاً شهداء ممجَّدين . !

ولقد استفتح آل البيت بفتاهم العظيم « على بن الحسين » ، .

ومن بعده تقدموا جميعاً كالصقور الكواسِر ..

* ها هم أولاء إخوته لأبيه :

عبيد الله بن على بن أبى طالب .. وجعفر .. وعثمان .. ومحمد الأصغر .. وأبوبكر .. والعباس .. يقذفون بأنفسهم وسط الهول ، وأخوهم العباس يهتف فيهم قائلا :

« تقدموا ؛ حتى أراكم قد نصَحْتُم لله ولرسوله » .

فيتقدمون إلى قلب الجيش المسعور بسيوفه العاوية ، ورماحه الباغية .

وكلما لمحوا خطراً يقترب من أخيهم البطل « الحسين » تلقوه بأجسادهم حتى سَقطوا جميعاً صرعى .. بل قولوا : صعدوا جميعاً شهداء .. !!

وعلى ثراها تمددت أجسادهم الكريمة يسبقها جثمان « العباس بن على » الذى كان لبهاءِ طلعته ، وتألُّق شخصيته ، يُلقَّب بـ« قمر قريش » !!

* * *

* وتقدم أبناءُ «الحسين» وأبناءُ «الحسن» :

أبو البكر بن الحسين .. وعبد الله بن الحسين .. والقاسم بن الحسَن ..

* كما تقدم أبناء جعفر بن على بن أبى طالب : عَوْن .. ومحمد .. وعبد الله ..

* وأبناء «عَقيل بن أبى طالب» :

عبد الله الأكبر .. وعبد الله الأصغر .. وجعفر ..

* وأبناء «مسلم بن عقيل» الذى قتله ابن زياد بالكوفة : محمد .. وعبد الله ..

* كما تقدم محمد بن أبى سعيد بن عقيل ..

تقدموا جميعاً فى بطولة تتحدىً نفسها !!

واندفع أصغرهم سِناً ــ القاسم بن الحسَن ــ يهزّ سيفه فى الهواء الساخن ، ثم يهوى به فوق الأعناق الضالّة الظالمة ، حتى نالته سيوفهم فهَوى كالنجم ، ينادى : ياعمَّاه .. !!

ونَسِيَ «الحسين» ما حوله من هول ، وانطلق كالصّقر صوبَ قاتِل ابن أخيه ، حيث شَدَّ الليث وضربه بسيفه ، فبتَر يدَه الشقيّة ثم طرحه أرضاً ، حيث داسَتْه خيل جيش ابن زياد ، فهلك تحت حوافرها ..

وانثنى «البطل» نحو ابن أخيه يَضُمُّه ، و يشُمُّه ، و يتملّى فى جسده المُثْخَن ، رَوْنَق ، الزهور .. !!

ولأول مرة سالت عبرات الأسد ، وقال يخاطب الجثمان المسَجّى بالمجد .

«عَزيزٌ والله على عمّك أن تدعوهُ فلا يُجيبُك .. أو يُجيبك فلا ينفعك فى يومٍ ، كَثُرَ واتِرُه .. وقَلَّ ناصِرُه .. » !!

ثم حمله بين ذراعيه ، إلى حيث أرقده بجوار ابنه علىّ ، ثم عاد لِهوْلِ المعركة من جديد . ! !

* * *

لك الله ، أبا عبدِ الله ! !

وهل اختارتْك المقادير لهذا العبء الذى يُدغدغ الجبال ، إلا وأنت له كُفْؤٌ و به جدير ؟ ؟

ألا صبراً آل محمد .. فهذا دَوركُم فى الحياة ، وحظكم من الدنيا .. يا سادة الآخرة ، و يا مُلوك الجنَّة .. ! !

راح الأبرار يسقطون فى الحومة أبطالا .. و« الحسين » يصول هنا .. و يُقاتل هناك .. ودمُه الزكىّ يتفجر من فه الذى اخْتَرمه سهم وهو يحاول أن يأخذ جرعة ماء .. ! !

ووقف وحيداً أمام أعدائه ..

وحيداً .. فقد رحَل الأهل جميعاً ، بعد رحيل الأصحاب ...

كلهم عانقوا الشَّهادة فى سبيل الحق .

وأحاط به القتلة الذين سُمِّروا فى أماكنهم ، زائغةً أبصارهم .. واجِفةً قلوبهم .

لقد كانوا — على كثرة ما اقترفوا من جريمة وسفَكوا من دم — يَهولُهم دَمُ « الحسين » فيتفادى كل منهم وِزْرَ الإجهاز على حياته .

وهُنا إنبعث أشْقاها (شمر بن ذى الجون) فصرخ فيهم ؛ ليختطفوا رأس البطل .. فاقتربوا منه .. لكنه رغم جراحه ووحُدته ينقَضّ عليهم بسيفه .. ويخرج من الفسطاط غلام صغير ، هو « عبد الله بن الحسَن » فيلمحُ قاتلا يَوجِّه سيفه نحو عمه ، فيصيح فى براءة الأطفال :

« يا ابن الخبيثة أتقتل عمى » . !

فينـالـه ، ابـن الخبـيثة بسيفه الجبان ، فيسقط على الأرض دون أن تصيب الضربة منه مقتلا ، و يسارع إليه عمه فيحمله إلى مكانه مع عمته السيدة زينب التى جلست تستقبل الضحايا ، وتُبصر المصاير، فى تفويض الله ، ورضاً بقضائه ! !

يواجه البطل أعداءه فى جولةٍ أخيرة ، فتقع ضربة سيف على رأسه الشريف فتدميه .. فيشدّه بعصابة ، ويحمل سيفه والدم ينزف من كل جسمه .

والمجرمون يَضربون .. و يضربون .. بيد أنهم لا يزالون يرهبون دمه ، و يتجنبون مَقاتِله ! !

ومرة أخرى ، تخرج « السيدة زينب » من خِدْرها . فترى أخاها وحيداً بين الوحوش ، فتتقدم إلى حيث يسمعها « عمربن سعد » قائد جيش ابن زياد ، وتصيح به :

« يا عُمر ..
أيُقتَل أبو عبدِ الله وأنت تنظر» ؟ ؟ !

فيُطرقُ « ابن سعد » خزْياً وندامَة ، و يصْرف وجهه عنها وقد تفجَّرت عيناه بالدموع .. لكنه لا يستطيع أن ينسلخ من الموقف الذميم الذى ورَّطهُ فيه هواه ..

و يضرع « البطل » إلى أخته كى تعود إلى مكانها ، ثم يصيح فى القتَلَة :

« أعَلى قتلى تجتمعون ؟ ..
إنى لأرجو الله أن يُكرمنى بهوانكم ، ثم ينتقم لى من حيث لا تشعرون » .

و يطير صواب شمر بن ذى الجوشن ، فينادى فرسانه من جديد ، و يأمرهم أن يقفوا من وراء مُشاتِهِ ورُماته ؛ ليمنعوهم عن النكوص إلى وراء .

ثم يصرخ فى الرّماة ، مُتوعّـداً إياهم المصير، عندما يرجعون لابن زياد ، ويهتاج كالمسعور طالباً رأس البطل ..

و يتقدم من « الحسين » واحد فيضرب به بسيفه الأثيم على معصم يُسراه ، فتطير كفّـه ، ثم يتقدم ثانٍ فيضرب به بسيفه الظلوم على عاتقه ، فيقع على الأرض .. ويحسبون أنه انتهى ، فينصرفون عنه ، لكنهم يُفاجأون به ينهض من جديد متوكئاً على سيفه ، فيسارع إليه آخرون موجهين إليه الضربة الأخيرة ... !!

و يتقدم شمر بنه ذى الجون ، رِجْس البشرية كلها ، فيجتزّ رأس البطل .. ثم يحتفظ به ليحمله هدية إلى ابن زياد ، و يزيد ..

تماماً ، كما قُدم من قبل رأس « يحي بن زكريا » عليه السلام ، هدية لِبَغيٍّ من بغايا بنى إسرائيل .. !!!

* * *

كان النهار قد لفظ آخر أنفاسه ..

ومالت الشمس للغروب ، مُخلّفة وراءها شَفَقاً عجيباً فى حمرته الزاهية ، ووهجه المتألّق .. !!

ولقد امتد على طول الأفق ، وكأنه بساط وُضِع ومُهّد لِتعْرج عليه إلى جنان الله أرواح الشهداء .. !!

وعلى غير عادة الطقس والمناخ فى ذلك الحين وفى تلك الأرض ، دوّت طلقات قوية صادعة كأصوات الرعود .

ولقد حسِبها المجرمون نذيراً لهم .. ولكنْ لا ، فهُم أهونُ على الله من ذلك ..

إنما هى السماء ، كانت تطلق مَدافِعها تحيَّة .. !!
تحيَّة إجلال ، للمهمة التى أنجزها الشهداء .. !!

وتحيَّة استقبال للأرواح التى كانت قد بدأت رحلة خُلودها .. حيث تتلقَّى من يمين الرحمن ما أعدَّه لها من مثوبةٍ ، ونعيم ، وعَطاء .. !!

الفصل السابع

الحصاد والدرس

.. وانتهى كل شئ ، ليبدأ كل شئ !!

انتهى اليوم الرهيب بآلامه وأمجاده .. ليبدأ من جديد بدروسه وبحصاده !!

ولقد ألِف المؤرخون والكتّاب أن يتمثّلوا حصاد كرْبَلاء ، فيما أصاب قتَلة «الحسين» بعد حين ، من قتل وتدمير .. ثم فيما شاده المطالبون بثأره من امبراطوريات ودُوَل سادت الأرض وعَمرتها قروناً طِوالا ..

أما نحن ، فلنا وجهةُ نظر تختلف تماماً ..

فصحيح أن جميع الذين اشتركوا فى قتله وقتاله ، لَقوا حتْفَهم على أبشع الصُّوَر وأشدها مذلّة وهواناً .. كلهم ، من ابن زياد ، إلى شمر بن ذى الجون ، إلى آخر واحد من الذين تحمّسوا للباطل ، ووقفوا من ابن بنت الرسول موقف التحدى والعدوان .

ومن عجبٍ أن التاريخ تتبَّع مصارعهم ، فإذا هم جميعاً يُقتلون فارّين هاربين .. !!

ليس فيهم من مات ميتَة رجل ..

وكأنما كانت هذه أولى بشائر دعوة «الحسين» عليهم حين صاحَ فيهم ، وهو صامد وحده وسط سيوفهم ورماحهم قائلا :

« إنى لأرجوا الله أن يُكرمَنى بهوانكم » .. !!

كـلـهـم قـتلوا وديست جيَفُهم بالأقدام .. ماعدا يزيد .. فقد ضَنَّ عليه القدَر بأن يذهب قتيل ثورة أو مقاومة ؛ إذ أن ذلك كان سيضعه إلى حدّ ما ، فى الكفَّة المقابلة للحسين عليه السلام .

كان الناس سيتحدثون : أن داعية الحق قُتل استشهاداً ..

وأن مليك بنى أمية قُتل عقوبةً ، وقصاصاً .. وهذه مقابلة قد تجعل منه على صورةٍ ما ، نِداً أو كُفْؤاً .. الأمر الذى صمَّم القدر على حرمانه منه ، فتركه يعيش أربع سنوات تعيساً مُفزَّعاً .. ثم يموت فى يأسٍ ، وهوان ، ونسيان .. ! !

* * *

نقول : صحيح أن قتلة « الحسين » لَقوا جميعاً شرَّ مصرع وأسوأ نهاية .

لكنّ ذلك لا يدخل فى حسابنا بحال ، ونحن نتتبع الحصاد العظيم ليوم « كَرْبَلاء » ..

فليس لمقتل أولئك الأشقياء شأن يرتفع إلى مستوى ذلك الحصاد .. ولا يُكفِّرُ عن دماء الرجال ، بدماء الأنذال ! !

* * *

كذلك لا يدخل فى حسابنا لحصاد كربلاء ، تلك الدنيا الهائلة الحافلة التى شادها المطالبون بثأر البطل من عباسيين ، وفاطميين ، وعَلويّين .. فإن تلك الدنيا التى شادوها بكل امبراطورياتها ، ودُولها ، وسُلطانها . لاترتفع إلى مُستوى الجوهر النضير لتضحية « الحسين » وحياته ، وثباته ..

وبالتالى ، لا نستطيع أن نعتبرها مَثوبةً لتلك التضحيات وذلك الثَّبات .

إن حصاد تضحيته وتضحية رفاقه ، ليُجاوز ذلك كله إلى غايات أبعد ، وأمجد ، وأسمى ..

وإن الدرس الذى يُلْقيه يوم كربلاء بآلامه ، وبطولاته .. بمأساته ، وعظمته ، ليتفوَّق على نُظرائه فى قوة النور الباهر الذى أضاء به ضمير الحياة ..

والآن ، فإن علينا أن نتتبع مواطن العظمة والعبرة فى ذلك الحصاد .

* * *

وأول ما يلقانا فى هذا السبيل ، هو أن جذوَة الحق والصمود التى أضاءها الحسين وأصحابه بدمائهم ، لم تنطفئ ولم يَخْبُ نورها باستشهاده ، بل ازدادت ألقاً واندلاعاً على نحو يبهر الألباب .. !!

وتمثَّل ، وأبهى ما تمثَّل فى أخته العظيمة «زينب» ، وفى ابنه «عَلىّ» وهو غير «علىّ» الأكبر الذى استُشهد مع أبيه .

لقد توقعت الدنيا أن تحنى الكارثة جباه من بقى من آل بيت الحسين ..

ولكن الطاهرة البَتول« زينب بنت على » وحفيدة الرسول ، سرعان ما ردَّت للدنيا صوابها ، حين أرَتْها من عظمة هذا البيت كل عجيب ..

لقد أخذ ــ عمر بن سعد ــ قائد جيش ابن زياد .. أخذ معه إلى الكوفة أهل بيت البطل الشهيد من سيدات وأخوات ، وأطفال ..

وأراد أن تكون له فضيلةٌ وسط يومه الكئيب المظلم فى كربلاء ، فحافظ على أهل بيت البطل ، وأكرمهم ، وصانهم من كل سوء .

وتوقع ابن زياد قبل أن يُواجه آل بيت الحسين ، أنه سيلْقى انكساراً وضياعاً يستدِرَّان عطف قلبه الجبان .

لكن « أخت الحسين » ، البطلة .. أخت البطل .. وبنت البطل .. علَّمته ــ إن كان لمثله أن يتعلَّم ــ أنَّ الهزيمة التى يتفجَّع لها الناس ويستكينون ، إنما هى هزيمة الروح وما كان ولا يكون لدعاة الحق وحملة راياته أن تنهزم أرواحهم أبدا ولا أن تنحنى جباههم أبداً .. !!

ولقد لقنته هذا الدرس حين دخلت عليه ومعها أهل بيت أخيها الشهيد ، فسأل : مَن هذه .. ؟

فلم تُجبه .. ثم كرَّر سؤاله مرتين وثلاثاً ، وهى لا تجيبه ، حتى أجابته إحدى خادماتها قائلة :

« هذه زينب ، ابنة فاطمة ، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » ..

فقال ابن زياد ، مُدارياً خِزيه الذى أنزله به احتقار « السيدة زينب » إياه ..

قال البائس التعس : الحمد لله الذى فضحكم ، وقتلكم .

وهنا مزَّقت البَتول صمتَها بزئيرها العالى :

« .. بَل الحمدُ لله الذى أكرمنا بنَبيِّه ، وطهَّرنا من الرِّجْسِ تطهيراً .. وإنما يفضح الله الفاسق ، ويُكذِّب الفاجر ، وهو غيرنا ، يا ابن زياد » !!

واستمرّ ابن زياد فى مُداراة خزيه أمام الناس ، فعاد يسأل البطَلة : كيف رأيتِ صُنْعَ الله بأهل بيتك .. ؟؟

فأجابته فى عِزَّة إيمانها وتُقاها :

« كُتِبَ عليهم القتل ، فبرزوا إلى مضاجعهم .. وسيجمع الله بينهم وبينك ، فتختصمون عنده يوم القيامة » .. !!!

ورأى الجبان أنه أمام بطلة صعبة المراس ، فراح يُجيل بصره فى بقية آل البيت حتى وقع على غُلام مريض ظنَّ ابن زياد أنه فرصة ليدير معه حديثه المتوقَّح محاولا إظهار صَلفِه وغروره .

كان هذا الغلام « على بن الحسين الأصغر » الذى صار فيما بعد إماماً عظيماً عُرف باسم « على زين العابدين » .

سأله ابن زياد : مَن أنت .. ؟؟

فأجابه الشِّبل الكريم :

ــ عَلىّ بن الحسين ..

قال ابن زياد : ألم يقتل الله علىَّ بن الحسين ؟؟

فأجابه فى أناة :

ــ كان لى أخ أكبر منى يُسمَّى «علياً» قتله رجالك .. قال ابن زياد فى جهالَة وقحة : بل قتله الله ..

فأجابه «علىّ» :

«الله يتوفَّى الأنفُسَ حين موتها .. وما كان لِنفسٍ أن تموت إلا بإذن الله» . !!!

ودارت الأرض بابن زياد ، بعد أن لفَحتْه إجابة الغلام الرجل .. فنادى أحد جلاَّديه : خذ هذا الغلام واضرب عنُقه .

وتقدم الجلاَّد القاتل ، فاعترضت السيدة العظيمة «زينب» طريقه ، وضمَّت ابن أخيها بين ذراعيها وصاحت يابن زياد : «إذن ، فاقتلْنى معه» ..

هناك انخذل الطاغية ، ولم ينل الغلام بسوء .

* * *

وبمثل مجابهتها هذه لابن زياد ، كانت مجابهتها ليزيد حين أخذ الرَّكْبُ إليه بالشام ، تسبقه رؤوس الشهداء وفى مقدمتها رأس البطل العظيم .. !!

هناك وقفت تِجاهه أمام الحشد الذى جمعه ليظهر أمامه جبروته الكاذب وطغيانه الرخيص .

وقفت تقول له بملء فمها الصادق :

«إنك أمير مُسلَّط . تشتُم ظالماً .. وتقهر بسلطانك .. أظننت

يـا يز يد أن بنا هواناً على الله ، وأنَّ بك عليه كرامة ، فشمَخت بأنفك حين رأيت الدنيا مستوثقة لك .. ؟

ألا إنَّ الله إنْ أمهلَك ؛ فلأنه يقول :

(ولا يـحْسبَنَّ الذين كفروا أنـَّما نـُمْلى لهم خيرٌ لأنفسهم ، إنما نـُملى لهم ليزدادوا إثماً . ولهم عذاب مُهين ..) .

لَترِدَنَّ على الله غداً يايز يد ، وأنت تودّ لو كنت أبكمَ أعمى .. ولـتـجـدَنـَّـنـا عـلـيـك مَغرماً ، حين لا تجد إلا ما قدَّمت يداك ، تستصرخ بابن مرجانة .. و يستصرخ بك !!

ولَـتـعـلَـمـن يـوم يحـكـم الله بـيـنـنـا ، أيُّنا شرّ مكاناً وأضعف جنداً » .. !!

وكما صـنـع ابـن ز ياد من قبل ، صنع يز يد نفس الصَّنيع ، فراح يلوذ من قوارع « السيدة ز ينب » بتوجيه حديثه إلى الغلام المر يض .. !

قـال لـه : لـقـد قطع أبوك رَحِمى ، وجَهِل حقى ، ونازعنى سلطانى ، فصنع الله به ما رأيت .

فما زاد الغلام الرجُل على أن تلا الآية الكريمة :

(مـا أصـاب مِـن مُـصـيـبـة فى الأرض ولا فى أنـفـسكم إلاَّ فى كِتاب من قبلِ أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير ..

لـكَـيْـلا تـأسَـوْا على ما فاتكـُم ، ولا تفرَحوا بما آتاكم . والله لا يحبّ كل مختالٍ فَخور) .. !!

راحـت كـلـمـات « ز يـنب » الحارّة وأنفاسها الساخنة ، تهَبُ جَذوة أخيها الشهيد مز يداً من التوهُّج واللَّألاء . فإذا الناس أفراداً وجماعات يرفعون جباههم جميعاً متحدّين ذلك النصر الرخيص الذى أحرزه يز يد ، وابن ز ياد ..

فـيـقف الصحابى الجليل « يز يد بن أرقم » رغم كـُهولة سِنـِّه ووهن

جسمه ، يصرخ فى أهل الكوفة :

« يا معشر العرب الذين صِرتم عبيداً .. أتقتلون ابن فاطمة .. وتؤمِّرون ابن مرجانة » .. ؟؟!

و يقف « عبد الله بن جنيف الأزدى » لا يمنعه ذهاب بصره ، وضعف شيخوخته ، فيصيح بابن ز ياد أمام الملأ من الناس :

(يا ابن مرجانة .. أتقتل أبناء النبيين ، ثم تقوم على المنبر مقام الصدّيقين .. ؟
ألاَ إن الكذاب ، لهُوَ أنت وأبوك .. والذى ولأّك وأبوه) .. !!

وتنهض فى الكوفة كتائب « التوّابين » مُقْسمة أن تهَب حياتها لثأر « الحسين » ..
وتشتعل الثورة عارمة فى مكّة ، وفى المدينة حيث يُجرِّد لها ــ يز يد ــ من جنده وقواده من ينزلون بالحرمَيْن المقدسين من الدمار والقتل والإفك ما يخجل الشيطان من اقترافه .

ولكن الجذوَة المباركة لا تخبو، حتى يموت بحسرته يز يد ، ويخلُفه ابنه « معاو ية الثانى » .. وهنا يُوجِّه القدر الحكيم أذكى ضر باته ، فيقف ابن يز يد نفسه ليحمل شعلة الحسين ، و يز يد الجذوَة ضِراماً ، حين يجمع الناس ليوم مشهود ، ثم يُعلن فيهم ــ كما أسْلفنا من قبل ــ أن جدَّه وأباه أغتصبا الحق من أهله ، وأنه يبرأ إلى الله مما جنَتْ أيديهما .. وأنه يَرْبأ بنفسه و بتقواه عن أن يجلس على العرش الملوث بالجريمة .. !!
ثم يعلن عليهم اعتزاله منصبه .. و يعتكف فى بيته حتى يأتيه الموت ، فيلقى الله تقياً ، نَقِياً ، سعيداً .. !!

* * *

و يلقانا من حصاد كربلاء ودروسها العظيمة ، جلالُ الإيمان وسلطانه القاهر..

فالحسين رضى الله عنه حين خرج إلى الكوفة لم يكن طالبَ دنيا ولا جاه . إنما كان مستجيباً لسلطان الإيمان الذى لا يُعْصى ولا يُغلَب .

ولقد رأى الإسلام بكل قِيَمِه الغالية وأمجاده العالية . يتعرض لمحنة قاسية يفرضها عليه بيت أبى سفيان .

ورأى خطيئة الصَّمْت والسُّكوت تجتاح الناس رغْبةً أحيانا ، ورَهْبةً أحيانا .. كانت بيعة يزيد دعما لسلطان الجاهلية على حساب الدين ... ودعما لسلطان القبيلة والأسرة على حساب الأمَّة ..

وهكذا صارت مقاومتها دعْماً لسلطان الدين والأمَّة معاً .

ولَئن فات « الحسين » دعم هذا السلطان فى النظام العام عن طريق الخلافة ، التى لم يكن له من أمرها شئ ، فإنه لم يتخلَّ عن واجب دعْمِه فى الضمير ، عن طريق التضحية والصمود والفداء .

وهكذا .. وفى سبيل إيمانه الوثيق والعريق ضحَّى البطل الشهيد براحته ، ثم بحياته .. وضحى معه أهله الأقربون ، وصحبه الأكرمون .

ولقد يبدو لبعض الذين يفكرون فى عجَلة ، أن « الإمام الحسين » ومِن قبله والده « الإمام على » كانا بإيمانهما ، وبما يَنشدان للحياة وللحُكم من ورَع وتقوى يمثلان جُموداً لم تعد تطيقه الحياة بعد التطور البعيد الذى حققه الإسلام وانْفعل به .

فالحق أنهما على العكس تماماً ، كانا يُمثلان رُوح التقدّم وضميره ..

بينما كان الآخرون من بنى أمية بتحويلهم الدين إلى مزرعة أموية .. وبتحويلهم الخلافة إلى مُلكٍ يحتكرونه ويتوارثونه ، وبتحويلهم السلطة إلى سوط .. وبإشاعتهم النزعة القَبلية بعد أن أذابها الإسلام فى وحدته الصُّلْبة . كانوا بذلك كله يمثلون الرجعية المنتكسة إلى عادات الجاهلية وتقاليدها .

لقد كانت تُضئ إيمان الحسين وتَسْتجيشه دوماً ، تلك الكلمات الصادقة التى قالها جَدّه العظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« هلاكُ أمتى على أيدى أغَيْلِمَةٍ من قر يش » .

وها قد جاء زمانُ الأغَيْلمة مُمثَّلاً ومُمثَّلين فى يز يد ، وابن ز ياد ، وما حولهما من بطانة الإثم والسوء .. ! !

وهناك حقيقة كان يدركها « الحسين » تماماً ، و يدركها أبوه « الإمام » من قبله ــ هى أن بلاط معاو ية وجيش الشام نفسه قد أفْسحا مكاناً رحْباً وعر يضاً لكثير ين من الموتور ين الذين تظاهروا بالإسلام ليندسُّوا بين صفوفه مخرِّبين ومُدمِّر ين .

فالإيمان الذى حمل « الحسين » لواءه ، وذهب شهيده كان لهذا كله ، وبهذا كله ، إيماناً مستنيراً وواعياً ورشيداً .

كذلك نواجه من حصاد كر بلاء ودروسها ، ذلك الدرس العظيم عن عظمة التضحية ، وقداسة الحق .. فالقدَر الحكيم ، يرتفع بالتضحية فى « كر بلاء » إلى أعلى مستو ياتها المرموقة ، ويجعل منها ومن الحق « قيمة مطلقة » تُحقق ذاتها داخل ضميرها أولاً .. ثم تعكس جلالها وسلوكها على الزمان والمكان بعد ذلك ..

إنه يفصلها عن كل شئ عداهما ، حتى عن النصر ذاته ..

وهكذا رأينا اثنين وسبعين مقاتلاً يصمدون لأر بعة آلاف فارس يوماً بأكمله ثم يستشهدون جميعاً بعد أن يُنزلوا بعدوّهم خسائر فادحة تمثَّلت فى ز يادة أعداد قتلاه عن عدد أولئك المستشهدين .

كأنَّما أراد القدر أن يقول لنا : إن الدرس الذى أر يد إلقاءهَ اليوم ، ومن فوق مِنصَّة كر بلاء الشاهقة ، لايتمثل فى قدرة القلة المؤمنة على إحراز النصر على الكثرة الساحقة ، فطالما ألْقيتُ دروساً من هذا الطراز.

إنما درس اليوم عن عظمة التضحية وقداسة الحق . درس اليوم فحواه أن التضحية قيمةٌ بذاتها ، وأن الحق قيمّة بذاته ...

وهما لا يستمدان جدارتها ومكانتها مما يُحرزان من نصر . أو يكتسبان من مَغنْم وسلطة .

فالانتصارات والمغانم يظفر بها الباطل أحياناً ، ويحققها الإذعان أحياناً .

وإذن فالصِّفة المميِّزة للتضحية ، أنها التضحية وحسب .. والصفة المميزة للحق ، أنه الحق وكفى ..

والمَثوبة العظمى التي ينفرد بها أبطال التضحية وأبناء الحق ، هي انتماؤهم العظيم للتضحية وللحق ..

أجَل .. هذا هو الدرس الجليل الذى كان القدر يلقيه على الدنيا فى يوم كربلاء ، متخذاً من حركة القتال وسَير المعركة وسائلَ إيضاح .. !!

فهو يَدعُ الآلاف من فرسان ابن زياد يترنحون تحت ضربات « اثنين وسبعين » لاغير من أنصار « الحسين » وأبناء الحق ؛ ليكشف — أعنى القَدَر — عن قدرته على إبادة ذلك الجيش لو أراد .. لكنه لا يريد ؛ لأنه يُعِدّ هذه المعركة وذلك القتال لمغزىً آخر يؤكِّد شرف التضحية وقداسة الحق مُستَعلِيَيْن بذاتَيْهما عن كل شئ حتى عن النصر والنجاح !!

* * *

ولقد أبرزَتْ بطولات كربلاء شرف التضحية على نحو باهرٍ وجليل ، حتى لنكاد نحسب أن الأقدار إنما أرادت ذلك اليوم بكل أهواله وتضحياته لتؤكِّد شرف التضحية فى وعى البشرية كلها ، ولتضئ بمغزاه ضمير الحياة ..

من أجل ذلك ، اختارت لها فى يوم كربلاء ، نماذج رفيعة ، بالغة الرِّفعة .. وقضية عادلة ، بالغة العدالة .. ونضالاً باسلاً ، بالغ البسالة ..

إذن هي شرف الإنسان وشرف الحياة .

وما دامت التضحية شرفاً ، فيجب أن يُصرف النظر عن الشكل الذى يفرضه عليها الاضطهاد والبغي . فالتضحية ليست حفلاً ساهراً .. وسواء على البطل أن يستشهد وجسده سليم .. أو يقضى ، وجسده ممزَّق .. أن يبقى رأسه مكانه من الجسد ، أو يُفصل الرأس و يُمثَّل بالجسد !!

كل ذلك ، وأكثر من ذلك يُغطِّيه شرف التضحية ، و يُحوِّل أساه إلى مَجْد .. وفواجِعَه إلى بطولات !!

ومن شاء فلينظر ، فهؤلاء نفرٌ من أكرم الخلق ، وأتقى الناس ، تُمزَّق أجسادهم بسيوف الباغين ، ثم تُحتزّ رؤوسهم ــ اثنان وسبعون رأساً ــ وتغرس فى أسِنَّة الرماح .. !!

فهل انتقص ذلك مِثقال ذرَّة من شرف التضحية وعظمتها . ؟

أبداً .. بل زادها تألُّقاً وشرفاً ..

إن الأجساد بمجرد إلقائها النفس الأخير يُزايلها الإحساس بالألم .. ثم تنال الأرواح مكانها العالى عند الله بقدر بلائها وتضحياتها ، كما تنال مكانها العالى فى ضمير التاريخ بقدر بَذْلِها وعطائها .

ومن ثَمَّ فالناس يخطئون عندما يقفون أمام شكل التضحية ومايصاحبها من ألم وفاجعة ، ثم لايجاوزون هذا الشكل إلى جوهر التضحية ، حيث العظمة والجلال .. !!

ولقد أدرك هذه الحقيقة ، وعبَّر عنها فى أصالة عظيمة ، بطل الإسلام « خالدبن الوليد » حين تمثَّل مأساة حياته فى موته على فراشه ، محروماً من شرف القتل على أرض المعارك والنضال . فقال قولَته المأثورة :

« لقد شهدتُ كذا ، وكذا زحفاً .. وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربةٌ سيف ، أو طعنة رمح ، أو رمْية سهم .. ثم ها أنذا أموت على فراشي حَتْفَ أنفى ، كما يموت البعير ، فلا نامتْ أعينُ الجُبناء » .. !!

* * *

وفى واقعة كربلاء هذه ، يتألّق ذلك المغزى تألق النهار .

فإذا كانت فى شكلها الخارجى تبعث الأسى والحزن ، فإنها فى جوهرها العظيم تستجيش كل ما فى النفس البشرية من إعجاب وإجلال .

إنها تبدو، وكأنها مهرجان للحق بالغ الروعة !!

وتبدو، وكأنها عيد للتضحية نادر المِثال !!

إن المسلمين يحتفلون كل عام مرة بعيد الأضحى ، و يسمونه « العيد الأكبر» .. فماذا كانت مُناسبة هذا العيد فى التاريخ .. ؟ كانت مناسبته التضحية .. ولا شئ سواها ..

فخليل الرحمن « إبراهيم » أراد القدر أن يلقّن البشرية عن طريقه درساً ليس كمِثله درس فى تقديس مشيئة الله وتلبية ندائه وأمره ، فدعاه أن يذبح ولده فسارع من فوره وشحذ سكّينه وتلّ ولده للجبين .. وفى اللحظة الباهرة ملأ الوحى روعَه وفؤاده :

(يا إبراهيم ، قد صدّقْتَ الرؤيا .. إنّا كذلك نجزى المحسنين) . !!

فهل اتخذ الإسلام من تلك المناسبة عيداً ، لأن الله افتدى « اسماعيل » بِذِبْح عظيم .. ؟ !

كلاً ، فلقد كان سيحتفل بها أيضاً لو انتهى الأمر إلى أن يكون « إسماعيل » الذبيح والقُربان ..

ذلك أن الإسلام يحتفل بمضمون الموقف وجوهره ــ التضحية بأعز شئ .. وفى سبيل ربّ كل شئ ، وإله كل شئ .. !!

ولقد وقف « الحسين » وأهله وأصحابه من أجل الحق موقفاً استحق ببطولاته وتضحياته أن يكون للتضحية عيداً ، أىّ عيد .. !!

لقد رفضوا الباطل ، واختاروا الحق ..

ثم رفضوا الصَّمت ، وآثروا المقاومة ..

ثم رفضوا المساومة ، وصمدوا مع إيمانهم ..

ثم لما رأوا أنفسهم اثنين وسبعين ، وسط آلاف فارس ورامٍ ، ولم يعد هناك أدنى ريب فى أن الموت هو الذى ينتظرهم ، اقتحموا الهَوْل فى مشهد مجيد ، مُقرِّرين بمحض اختيارهم وإرادتهم أن يمنحوا أمتهم ، بل والبشرية كلها هذه القدرة الرائعة فى التضحية .. وهذا العيد الممجَّد للفداء .. !!

وفى جلال المُفْتدين ، وإخبات المتقين ، راحوا يؤدون مهمتهم القاسية والعالية ، حتى أنجزوها فى نجاح عظيم .. !!!

* * *

وإنى لأكادُ أرى المعركة أمامى ..

أرى وَقْع السيوف ، وقَذْف الحراب .. أرى قطع الرقاب ، وتمزيق الأجساد .. أرى وحشية المجرمين ، وصمود المتقين ..

أرى ذلك كله ؛ فلا يخدعنى الشكل الفاجع عن الجوهر المجيد .. !

ولا تصرفنى مأساة الموت ، عن عظمة الشهادة .. !

ولا يشغلنى مأتم الأرض ، عن ابتهاج السماء .. !!

أجلْ .. لكأنى أرى السماء يومها مُبْتهية وهى ترى الحق يستعيد قداسته فى ذلك اليوم الرهيب ، ويُثبت استعلاءه بهذا الصمود العجيب . !!

ثم ، وهى ترى حكمة الله فى اختياره تتجلّى ..

فقديماً ، وعندما كان الرسول عليه السلام فى بدء دعوته ، قال كُفار قريش : أوَلم يجد الله غير ذلك البيت الهاشمى الفقير ليختار منه رسوله .. ؟؟

فأجابهم الوحى صادعاً رائعاً :

(الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

أجَلْ ، الله أعلم ..

وها هوذا عِلْمُه يتألَّق للدنيا ، ولا كمِثله تألُّق النهار .. !!

فالرسول لم يكن وحده بطل التضحيات ، لأنه رسول .. بل ها هوعمه « حمزة » بطل الإسلام فى « أحُد » تمزقه السيوف والأحقاد ، حتى تستقر كبده بين أنياب « هند » زوجة أبى سفيان .. !!

وها هوذا « جعفر » ابن عم الرسول ، بطل « مُؤته » تحصد جسده سيوف الروم .. !!

وها هوذا «عَلىّ» ابن عم الرسول .. بطل الإسلام فى كل غزواته ومشاهده .. وبطلُه فى وجه الوثنية الأموية التى أرادت أن تُحوِّله إلى مُلْك عَضوض ــ يمضى هو الآخر شهيد اغتيال أثيم .. !!

وها هوذا «الحسن» بطل السَّلام فى الإسلام ، تغتال عصابةُ الشيطان حياتَه بالسُّم ، و يأخذ مكانه العالى بين الشهداء .. !!

ثم ها هم أولاء ، أبطال كرام من نفس البيت الممجَّد والعظيم ، يصارعون أربعة آلاف مدجّجين بالجريمة والسلاح .. وليس معهم فى ذلك اليوم الرهيب سوى خمسين ناصراً أو مُقاتلا .

و يتقدم الاثنان والعشرون إلى التضحية والموت فى استبسال مُعجز ..

و يعانقون الشهادة جميعاً ، لا يبقى منهم سوى فتىً مريض .. !!

أليس حقاً ، أنَّ الله أعلمُ حيث يجعل رسالته .. ؟؟

أليس حقاً ذلك يا رجال .. ؟!

* فأى شىء فى يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته ؛ فنرى فيه وجه المأساة ولانرى أمجاد البطولة .. ؟؟

ألأنَّهم قاتَلوا ظِماء ، وماتوا ظِماء ، بينما أمواه الفرات تتفجّر أمواجها على بُعد خطوات .. ؟؟

وأىّ بأس ، وهم بعد ساعات معدودات سيكون لهم كَوثر الرحمن كله .. يَشربون منه علَلاً بعد نَهْل .. ؟ !

الآن نكاد نعرف .. فلكأن هذا اليوم كان فى حساب الوحى يوم نزل على الرسول من ستين عاماً مضت مُعزياً ومُبشراً وقائلا :

(إنّا أعطيناك الكَوثر) .. !!

* وأىّ شئ فى يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته .. ؟؟ ألا إنهم وحدهم فى تلك الفلاة يقاتلون ، وهناك فى طول البلاد الإسلامية وعرضها ملايين البيوت أوى إليها أهلها ، واستقروا آمنين تحت سقوفها .. ؟؟

وأىّ بأس ؛ مادام الله سبحانه قد ترك الملايين من تلك البيوت ، ثم اختصَّ هذا البيت وحده بأعظم مافى الدنيا من مجد وشَرف ــ شرف اصطفائهم لحمل رسالته ، وإعلاء كلمته .. !

* وأىّ شئ فى يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته .. ؟ ألا إن المعركة ستُخلِّف أجسادهم فوق أرضها صرعى بينما المجرمون يتلمَّظون بنصر تعِسٍ رخيص .. ؟ !

سَلوا الله إذن عن حكمته فى تلك الصفوف العارمة من القدّيسين والأبرار الذين صرعهم الباطل عَبر التاريخ من كل أمة ، وعصر ، ودين .. !!

* أم لأنَّ رأس «الحسين» سيُفصل عن جسده ، ثم يحمل هدية لابن زياد ، و يزيد .. ؟

سلوا الله إذن عن حكمته فى رأس «يحي بن زكريا» نبيّه الكريم والعظيم حين فُصل عن جسده ، وقُدم هدية لِبَغىٍّ من بغايا بنى إسرائيل .. !!

* أم لأننا سنرى الفتى المريض المُجهَد ــ «على بن الحسين»

الذى فقدَ فى المعركة أباه، وإخوته، وأعمامه يُقيَّد بالأغلال و يُطَوَّف به فى شوارع الكوفة التعِسة .. ؟؟

ألا فلْنحطِّم مقاييسنا الجاهلية الضريرة، إذا أردنا أن نبصر جوهر الاشياء ..

وإذا لم يكن بُدّ لأقدامنا أن تبقى على الأرض، فلترتفع عنها عقولنا ورؤانا، إذا أردنا أن نتعرف إلى حكمة السماء .. !

وإذا كانت وحشية المجرمين سترينا فى كربلاء وجه الفاجعة التى تُذيب الصخر، وتصهر الحديد .. فإن شرف التضحية وجلال الحق سيريااننا فيها روعة المهرجان، ومجْد العيد .. ! !

* * *

ونختتم حصاد كربلاء ودروسها بمثوبة التضحية .. فتعلّمنا دروسها العظيمة أن التضحية مَثوبةُ نفسها، وأنها مادامت فى سبيل الحق، فإن انتظار الأجر عليها جهل «بقيمتها» إلا أن يكون هذا الأجر رِضا الله، ورضوانه، وجنانَه ..

وليس معنى كون التضحية مَثوبة نفسها أنها تَحرم أبطالها من مزاياها وعطاياها .. وإنما معناه أنها ترتفع بتلك المزايا والعطايا إلى مستوىً من القداسة، والقدوة، والخلود، يُزرى بكل مغانم الدنيا العاجلة وأمجادها الزائلة ! !

إن مظاهر الرقىّ البشرىّ كثيرة. ولكنَّ شرف الإنسان وجدارته بالحياة لايزالان، وسيظلاَّن منوطَيْن بقدرته على التضحية النبيلة والجليلة من أجل الحق.

واللوحة التى رسمتها تضحيات «الحسين» وأهله وصحبه بوَّأت هذا الشرف وتلك الجدارة أعلى المنازل والذرّى ..

إنهم لم يُقدِموا على تضحية يرجى من ورائها النصر . بل أقدموا على التضحية من أجل التضحية ذاتها ..

وهكذا جعلوها وسيلة وغاية ..

كما أكّدوا معنى أنها مَثوبةٌ نفسها ، وأنها قِيمةٌ بذاتها !!

* * *

وبعد ، فأكاد أسمعكم تقولون : إنك لم تحدثّنا عن أجساد الشهداء الأبطال ، أين استقرَّت .. ؟ ولا عن رأس « الحسين العظيم » أيَّانَ مصيره ، ومُرْساه .. ؟؟

أما أجسادهم الكريمة ، فقد استقرت تحت الثّرى الدامى لأرض كربلاء .. !!!

فعلى أثر رحيل جيش ابن زياد خفَّ إلى مكان المعركة نفرٌ من بنى أسَد ، كانوا ينزلون بالقرب منها ، فدفنوا جثمان البطل العظيم .. وعند قدميه دفنوا جثمان ابنه الحبيب « على بن الحسين » ، ومن حولها دفنوا أجساد بقية الشهداء الممجّدين .. وحيث وقع « العباس بن على » أخو « الإمام الحسين » شهيداً ، دفنوا جثمانه الكريم .

* * *

وأما رأس البطل ، فقد راحت البقاع الإسلامية تتنافس ادّعاء شرَف إيوائه ، فيدّعى كل منها أن الرأس عندها يُعطر أرضها ، و يبارك حِماها !!

لكنْ لا يُعرف على وجه اليقين أين هو ..

وذلك أمر يتّسق مع حياة البطل ومصيره . !!

فرأس الحسين ، بكل ما مثّله من صمود وعظمة وتضحية لم يعُد مِلْكاً للحسين ، ولا مِلْكاً لجسده ..

لم يعُد ملْكاً لأرض .. بل ولا لِدينٍ دون دين ..

لقد صار ملكاً للبشرية الراشدة في كل زمان ومكان .

صار ملكاً للحق ، يرفعه في أوديته العامرة والثائرة لواءً وقدوة ، ويملأ بِسَناه إرادة الحياة عزماً ، وضميرها نوراً .. وكذلك صارت رؤوس أهله وصحبه .. مشاعلَ فوق طريق الحق ، والشرف ، والإيمان !!

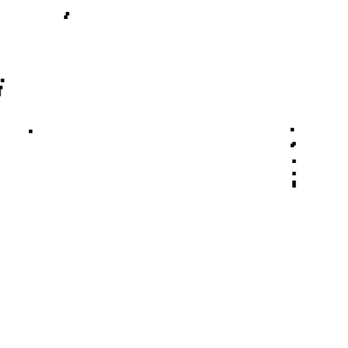
تم بحمد الله

في هذا الكتاب

رقم الايداع

٨٦/٣٤١٥

المطبعة الفنية ت : ٩١١٨٦٢٠





دار ثابت للنشر والتوزيع : ٩٢ أ شارع محمد فريد ــ ص ب : ٦٠ باب اللوق ــ تليفون : ٧٦٩٥٧٤

دار ثابت

المطبعة الفنية ت : ٩١١٨٦٢